

بدءاً

نقدر - بكل حرارة - جهود المساهمين معنا لإنجاح هذه المطبوعة، التي أصبحت سفينة عربية تبحر في محيطات الثقافة العالمية، فتمر على كثير منها، وترسو أحياناً في بعض مرافئها، لإلقاء مزيد من الضوء على ثقافة معينة، أو موضوع محدد.

كم نحن سعداء بما حققته فكرة الملفات الأدبية، التي نشرت ولا تزال عبر أعداد مختلفة، وتم التركيز فيها على ثقافات معينة، نشعر أن القرى العربي لا يزال بحاجة إلى التعرف عليها بشكل أكبر. وحجم الملفات المنشورة يخضع لمقدار المشاركات التي تصلنا من الإخوة والأخوات. وحين تصلنا مواد متميزة أخرى من هذه الآداب، فإننا لا نرى مانعاً من نشر ملفات أخرى تحمل مادة جديدة.

في هذا العدد ننشر ملفاً عن الأدب الفارسي. وإذا كان الأمر في البدء سينصرف إلى إيران حين ذكر الأدب الفارسي، فإن الواقع يشير إلى اتساع رقعة هذا الأدب ليشمل مناطق جغرافية كبيرة، وأعداداً سكانية كثيفة، ومواد الملف تشير إلى ذلك.

فكرة الملفات سوف تستمر في **نوافذ**، بقدر تجاوب

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

المترجمين معها. وإذا كان ملف أدب الطفل سينشر في عدد قادم، فإن الأفكار لملفات قادمة ستظل قائمة. ونود التأكيد أنه يمكن إعداد ملفات خاصة لكاتب معين ضمن ثقافة محددة، بحيث يشتمل الملف على تعريف به، ونشر للعديد من كتاباته. ويمكن لمترجم واحد أن يقوم بإعداد ملف متكامل. غير أننا نود التأكيد أننا نحرض على الكتاب المتميزين في ثقافتهم، الذين لم يترجم كثير من أعمالهم إلى اللغة العربية.

مع تقديرنا لجهود المترجمين، فإننا في التحرير نحرض على المادة الجديدة، ونعترف أننا لا نحتفي كثيراً بالأعمال الإبداعية لكتاب ترجمت معظم أعمالهم إلى العربية. واحتفاؤنا أكبر بأداب الشعوب الإسلامية، وآداب العالم الثالث.

زيادة عدد الصفحات هذا العدد تأتي محاولة لنشر أكبر قدر من المشاركات، التي تأخذ لدينا زمناً أطول، بسبب كثافة المادة التي تصلنا، وكثيراً ما نكرر اعتذارنا لتأخر النشر.

نشمن تواصلكم الدائم، ونسأل الله للجميع دوام العون والتوفيق.

رئيس التحرير

العدد العشرون ربيع الآخر 1423هـ - يونيو 2002

20

**النص:
إنتاجه وتفسيره (*)**

فولفجانج هاينه مان - ديتر فيهجر

ترجمة سعيد حسن بحيري

1-2 المنطلقات

بعد أن رسمت في الباب الأول معالم أهم اتجاهات التطور التي استقرت في السنوات الأخيرة تحت مصطلحات مثل علم لغة النص أو علم النص

(*) هذا هو الفصل الثاني من كتاب: مدخل إلى علم النص Teexlinguistik, eine Einführung تأليف: فولفجانج هاينه مان وديتر فيهجر: W, Heinemann.

أيضاً بوصفها تخصصات جزئية لغوية مستقلة، ينبغي في الفصل التالي أن ينظر إلى عمليات إنتاج النص وتفسيره (فهم النص، تلقيه) بشكل مفصل وإن تطور في هذا السياق بذلك بضع تصورات عن الإطار، يعزا إليها وظيفة موجهة للتفصيلات التالية في هذا الكتاب. في هذا الفصل وضعت لذلك عمليات (إجراءات) في مركز الاهتمام، تعد عادية للغاية، ويمكن لكل واحد تحقيقها يومياً مراراً أو أنه يمكن ملاحظتها في عملية التعايش الاجتماعي بين البشر من خلال نشاطهم اللغوي. ومع ذلك لا يعني كون هذه العمليات يومية وأنها من الممكن أن تلاحظ جزئياً كذلك من خلال سلوكهم اللغوي، إنها متاحة للملاحظة المباشرة وأنها بناء على ذلك يمكن وصفها بسهولة نسبياً. فعلى العكس من ذلك تماماً: إن ما يمكن أن نلاحظه بشكل خاص هو نتائج نشاطنا أو منطوقاتنا أو نصوصنا اللغوية. ما القضايا والعمليات التي تنفذ في الذاكرة الإنسانية، حين ننتج نصوصاً أو نفسرها، من العمليات الذهنية التي تجري لإنتاج نص ما وفهمه، تغيب تماماً على الأرجح عن

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الملاحظة - المباشر. ومن ثم فإن التفصيلات التالية لا تفهم على أنها وصف للعمليات التي تجري حقيقة في الذاكرة بل هي فرضيات صيغت على أساس نتائج البحث في علم اللغة وعلم النفس وكذلك في الذكاء الاصطناعي حول عمليات استيعاب النص في السنوات الأخيرة. فالفرضيات - وهو ما يمكن أن يؤكد هنا بوجه خاص - ليست تأملات بل تخمينات مبررة علمياً على شكل كلام عن أشياء غير معروفة إلى الآن، لا تخضع للملاحظة المباشرة.

2-2 النشاط اللغوي

بادي الأمر يتضح لوضع نماذج لعمليات إنتاج النص وتلقيه أنه من الضروري توصيف بعض مبادئ عامة للنشاط اللغوي وتحديد وظيفتها الموضحة لعمليات استيعاب النص تحديداً دقيقاً. منذ أشار علم النفس الخاص بالتاريخ الثقافي، وبخاصة نظرية النشاط التي طورها فيجوتسكي Vygotskij وأ.ن. ليونتييف A.N Lmt'ev مراراً في تأكيد إلى أن البشر

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

الذين يتواصلون، ينجزون نشاطاً جماعياً، ينسقون من خلاله الفاعليات المفردة. ويظهر النشاط اللغوي أوجه اتفاق كثيرة مع أشكال نشاط أخرى للبشر، كالحال مثلاً مع النشاط العملي المادي أو الذهني، ومثل أي نشاط من هذه الأنشطة يتشكل النشاط اللغوي على نحو خاص يربط بحل مهام أو أهداف معينة وتوجهه أغراض اجتماعية. وبالنسبة للنشاط اللغوي وضعت - مثل الأنشطة الأخرى أيضاً - أدوات أو وسائل معينة، اكتسبها البشر في جماعة معينة في أثناء عملية تشكيلهم الاجتماعي، واستخدمت في مجالات عملية شتى، حين استمروا في تطوير هذه الأدوات وإتمامها.

ومع ذلك فإن النشاط اللغوي، خلافاً لأوجه النشاط الأخرى، موجه دائماً إلى أناس آخرين، يشملهم ذلك الشكل المميز للنشاط على نحو مغاير. ولذلك فالنشاط اللغوي منذ نشوئه هو نشاط متفاعل وتعاوني يقوم أساساً على العلاقات الجمعية والعلاقات بين الأفراد الموجودين فيه والعلاقات الاجتماعية (قارن أ. أ. ليونيتف 1984م). فكون

التفاعل يمثل ملمحاً أساسياً للنشاط اللغوي وكون النشاط اللغوي ليس شكلاً خاصاً للتأثير الاجتماعي المتبادل يمكن أن يوضح بيسر شديد من خلال مثال بسيط.

نفترض أن شخصاً ما وجد نفسه في بلد أجنبي ولا يعرف الطريق إلى محطة القطار. وحتى يحصل على المعلومة الضرورية يجب أن يتوجه بمنطوق معين إلى أحد المارة يفترض أنه يستطيع أن يقدم إليه المعلومة المرغوب فيها. وفي هذه الحال سوف يحقق المتكلم منطوقه بحيث يمكن للمتلقي أن يتعرف قصد المتكلم، أي أن يستخدم مجموعة الأدوات التي يمكن أن تفهم المتلقي قصده. فالمخاطب الذي طلبت منه المعلومة المرغوب فيها ينسق في العادة نشاطه مع نشاط المتكلم وسوف يعطيه المعلومة بمراعاة معايير اتصالية، في حالة كونه قادراً على ذلك. وحين لا تتوفر له المعارف الضرورية فإنه سوف يوضح للمتكلم أنه ليس قادراً على تلبية طلبه لمعلومات ما، ففي هذه الحال يوجد نشاط تعاوني ينشط فيه المشاركون في الاتصال خبراتهم الاجتماعية. ويربطون بعضها

ببعض، ويرجعون من خلال ذلك إلى خبراتهم التي اكتسبوها في عملية نشاطهم اللغوي، وطبقوها بشكل ناجح في مواقف مماثلة كثيرة. ولا يوجد - على العكس من ذلك - نشاط تعاوني، حين يرفض المخاطب عرض الاتصال، وفي حالتنا عينها طلب معلومة عن الطريق، أي يتجاهله.

إن تعقد الحقائق التي تميز النشاط اللغوي، أي عملية إنتاج النص وتلقيه - على نحو ما أظهر توصيف الاقتراحات الحالية لنماذج تحليل النص في الفصل الأول - لا يمكن أن يوصف أو يوضح من خلال نحو النص. بيد أن نماذج النص الاتصالية الكثيرة التي نشأت في وقت مبكر لا تعكس هذا التعقد أو ليس بقدر كاف وتقتصد إلى حد بعيد على تحليل نتائج النشاط اللغوي، إذ يجردها فيه في الغالب المشاركون في الحدث ينتجون من خلالها نصوص ويتلقونها. ولا يمكن التغلب على أوجه القصور في نماذج تحليل النص الحالية بشكل واضح إلا حين تحل نظرة دينامية محل النظرة الجامدة الاستاتيكية السائدة حالياً، حين لا تفهم النصوص على أنها شيء

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

جاهز (منته)، بل نتيجة نشاط دينامي خلاق لأفراد مؤثرين اجتماعياً، مرتبط بسياقات حدث معينة، ويسهم في تحقيق أهداف اجتماعية. ويبدو هذا من الوهلة الأولى شيئاً بدهياً، أو حتى شيئاً عادياً، لا يحتاج إلى أن يخص بالذكر، وقد أسهمت نماذج نصية اتصالية ليست قليلة في أن تفهم الخواص المقولية التي سبق توصيفها للنشاط اللغوي على أنها أفكار معقولة، ولكنها ليست مقولات أساسية يمكن أن يستنبط منها جوانب خاصة للغاية للنشاط اللغوي.

3-2 إنتاج النص

يمكن أن يستنتج ابتداء من المبادئ العامة المطروحة في الفقرة 2-2 الخاصة بالنشاط اللغوي أن المتكلم الذي ينتج نصاً ما، ينجز نشاطاً خاصاً، إنه يفعل فعلاً لغوياً. فلم يعد ثم خلاف في الوقت الحاضر سواء في نظرية النشاط أو في علم اللغة النفسي الخاص باستيعاب النص حول كون الأمر يتعلق هذا بنشاط واعٍ موجه إرادياً يشتمل على

الخواص المقولية ذاتها كأى نشاط آخر للإنسان أيضاً. وعلى الرغم من القيمة البالغة الأهمية للموقع الذي تحتله هذه البديهية في نظرية النشاط لوضع نموذج لعمليات إنتاج النص وتفسيره أيضاً، فإنه يجب مع ذلك أن يؤكد على أن مقولة النشاط اللغوي لا تصير لها وظيفة إيضاحية إلا إذا اضطلعت بتفسير مميز للموضوع. وبعبارة أخرى: يجب أن يفهم كل من إنتاج النص وتفسيره على أنهما نشاطان متفرعان بشكل تركيبى، وأنهما كذلك يضطلعان بتفسير مميز للموضوع. وقد أشار بودين Judin (1984) في تأكيد إلى هذه الفرضية المنهجية حول نظرة لغوية قائمة على أساس النشاط أو الحدث. ويمكن استناداً إلى جوانب عامة في نظرية النشاط ونتائج البحث أو الحدث. ويمكن استناداً إلى جوانب عامة في نظرية النشاط ونتائج البحث في علم النفس الإدراكي الانتهاء إلى أن المتكلم الذي ينتج نصاً يبتغي بذلك دائماً قصداً، غرضاً اجتماعياً، ينبعث من معلومة من المحيط أو الوعي بحاجة ما. ومن ثم يمكن لمكلم ما مثلاً أن ينتج نصاً ليبلغ سامعاً ما معلومات معينة أو يحصل

منه على معلومات محددة ليدفع السامع إلى فعل عملي أو يحفز له أداء نشاط أو لإقناع سامع أو لاستدعاء أحاسيس جمالية معينة لديه أو ليطلب منه إظهار رد فعل محدد أو ليقنع عن شيء ما إلخ. ويجوز من خلال هذا التوصيف غير الشكلي وغير التام بأية حال من الأحوال، لقصود ممكنة، يمكن أن يربطها متكلم ما بإنتاج النص، أن يتعرف مجالات وظيفية تالية، بوصفها أغراضاً اجتماعية ممكنة.

- إبلاغ معلومة من خلال نصوص.

- التعلم من خلال نصوص.

- إرشادات الحدث من خلال نصوص.

- نصوص لإنتاج علم الجمال الأدبي.

- أوجه إقناع من خلال نصوص (قارن أيضاً: ريكهايت/ شترونر (Rickheit/ Strohhher 1985a)).

ويمكن بذلك لتوصيف إنتاج النص استنباط ثلاث خواص جوهرية.

(i) يعد إنتاج النص نشاطاً لغوياً، يستعمل لأغراض

اجتماعية، ويندرج بناءً على ذلك في الأغلب ضمن سياقات نشاط معقدة.

(ii) إنتاج النص نشاط واع خلاق يضم تطور استراتيجيات معينة للحدث واختيار الوسائل المناسبة لتحقيقها. إنتاج النص هو نشاط قصدي دائماً ينجزه متكلم ما وفق الشروط التي ينتج في ضوءها نص ما، ويحاول أن يفهم السامع من خلال المنطوق اللغوي.

(iii) إنتاج النص هو باستمرار نشاط تفاعلي مرتبط بشريك، ويحدث دائماً بالنسبة إلى شركاء الاتصال الذين يتصل بهم النشاط اللغوي لمنتج النص بشكل متباين. ومع أن الخواص الثلاثة المذكورة لإيضاح إنتاج النص ذات أهمية خاصة فإنه يعزا مع ذلك إلى جانب المذكور أخيراً قيمة موقعية خاصة عند التحليل اللغوي للنصوص. لهذا السبب ينبغي أن يلقي الجانب القصدي هنا بضع تحديدات أخرى. فلم تعد اليوم ثمة حاجة إلى سوق أي دليل على أن إنتاج النص وتلقيه أيضاً يعدان سواء من حيث أصلهما أو تبعاً

لوظيفتهما نشاطات تفاعلية. ففي مقترحات نماذج علم اللغة النصي التي طورت بعد ما سمي بالتحول البراجماتي قد أبرزت وجهة النظر هذه باستمرار، غير أنه بوجه عام بالنسبة للتحليلات الفعلية للنص لم تستخلص النتائج الضرورية دائماً. فمقترحات نماذج علم لغة النص التي تركز أساساً على وصف نصوص فردية أبرزت بشكل جوهري تفاعل النصوص، غير أنه في التحليلات الفعلية غالباً ما أهملت. وقد أدى ذلك إلى أن التفاعل والتعاون وتنسيق النشاطات المرتبطة بهما، وبخاصة الذي صار يرتبط غالباً وبشكل قاطع بالمحادثة باعتبارها شكلاً من أشكال الاتصال التفاعلي، ارتباطاً فعلياً، مما أدى من البداية إلى تحرير غير مقبول لهذه السمة المقولية للنشاط اللغوي. فالمحادثة توضح الجانب التفاعلي والتعاوني للنشاط اللغوي على نحو مغاير أيضاً، ففي المحادثة لا يوجد منتج فقط أو متلق فقط، بمعنى أن المشاركين في المحادثة ليست لديهم أدوار ثابتة فيما يتعلق بالنشاط

اللغوي، كما هي الحال مع منتج النص الفردي ومتلقيه. ولما كانت المحادثة، ثنائية، وهو الشكل الأصلي للنشاط اللغوي، وتمثل النصوص الفردية (المنولوج) أشكالاً لنشاط لغوي مشتقة منها فإنه يبدو أن ينطلق من ذلك بحق إلا أن التفاعل هو خاصة كل نشاط لغوي، ومن ثم لا يمكن أيضاً أن يقتصر على المحادثة. فلا خلاف حول أنه توجد فروق دالة بين محادثة البيع مخاطبة أو خطاب التأمين، تعكسها شروط إنتاجها. ومع ذلك فليس هذا سبباً لتجريد النصوص الفردية عند تحليلها من سياقات تفاعلية نشأت في إطارها، ويجب بناء على ذلك أن تطرح من خلالها. سنحاول في عدة مواضع من هذا الكتاب أن نبين أن التفاعل ينعكس في بنية النص بطريقة مميزة للغاية. إن مثل ذلك الفهم للنص يجعل التفريق الذي ما يزال قائماً إلى الآن بين النص والمحادثة لا أساس له، ويلغي التطور المستقل لعشرات السنين بين علم لغة النص المعتمد إلى حد بعيد على نصوص فردية وبين تحليل المحادثة.

ويمكن أن تفهم النصوص في أول مقارنة بعد هذا التحديد الضروري للمفاهيم على أنها محصلة النشاط اللغوي لأفراد فاعلين اجتماعياً، ينسق هؤلاء من خلالها بين أفعالهم للوصول إلى هدف اجتماعي تبعاً للشروط التي يتم في إطارها نشاطهم اللغوي.

وفي الحقيقة قد تحدد من خلال هذه الخواص المتوالية الثلاثة؛ القصد والتفاعل وتحديد الهدف الاجتماعي جانباً جوهرياً في إنتاج النص، وتحددت بذلك أيضاً الخواص الأساسية للنصوص - ومع ذلك فما يزال الوصف الكامل لعمليات إنتاج النص غير ممكن. فالتكلم الذي ينتج نصاً لا يعيد بذلك إنتاج «نص» جاهز (منته) بشكل ما، مخزن في الذاكرة، بل إنه ينجز نشاطاً بنائياً خلاقاً، وضعت لتحقيقه وضبطه معرفة مكتسبة اجتماعية وخبرات اجتماعية. ومن ثم ففي علم النفس الإدراكي وعلم نفس النشاط يقارن غالباً بحل المهام المعقد أيضاً الذي يحدد المتكلم من خلاله ابتداءً النتائج التي يطمح إليها من خلال إنتاج النص، وكذلك طرق تحقيقها. وبعبارة أخرى: يتطلب إنتاج النص تطويراً لتصورات محددة

عن الهدف وبرامج أو خطط الحدث الملائمة للهدف وقيوده وكذلك تنفيذ الحدث المرتبط بالبرنامج. ويمكن أن تفهم خطة إنتاج نص ما على أنها تمثيل عقلي للهدف والحدث الكلي الذي ينفذه نص لتحقيق هذا الهدف. وبذلك تضم خطة النص النتيجة المتوقعة، وكذلك الطرق التي يمكن تبعاً لها الوصول إلى هذه النتيجة في موقف معين. وتتجلى العمليات الذهنية التي طورت خطة النص تبعاً لها وتحققت أخيراً من خلال منطوقات لغوية، في نص ما بطريقة مميزة للغاية. وهكذا يمكن على سبيل المثال التعرف من خلال نص ما على تلك الطريق التي اختارها منتج النص لتحقيق تصوره عن الهدف، وما الفروض التي أقامها فيما يخص معرفة السامع ومواقفه وتحفيزاته، وما التوقعات التي أقامها المفسر فيما يخص الاستيعاب الإدراكي للنص. وحتى لا تظل هذه المشكلة تناقش طويلاً على مستوى نظري محض ننعّم النظر في مثال نص أولي، يمكن التعرف من خلاله على ظواهر إنتاج النص التي نوقشت إلى الآن معرفة جيدة إلى حد بعيد. وبالنسبة للنص نتصور الموقف

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

التالي: (أ) لدى (شخص ما) عطل في السيارة،
ويقف بمركبته على حافة الطريق. أوقف سائق شاحنة
(ب)، يتوقع منه العون:

(13) أ: لحسن الحظ أنكم مررتم من هنا. فأنا
أقف هنا منذ أكثر من ساعة، لقد جربت إلي الآن كل
شيء حتى أعيد تشغيل مركبتي مرة أخرى. لكن
للأسف دون جدوى. لا أدري إن كانت لديك معرفة
بالسيارات، إذ يمكن للمرء من خلال بحث مشترك أن
يكتشف العيب أحياناً.

ب: في الواقع ليس لدي معرفة كبيرة بالأمر
الفنية، غير أنني أريد بالطبع أن أتأكد من أنني لعلي
أكتشف العيب. ١

أ: هذا لطف منك للغاية، ولا أعرف مطلقاً
كيف أشكرك على ذلك.

ب: دع الأمر كما هو، أريد أولاً أن أرى ما
يمكن عمله.

أ: شكراً بالمناسبة إذا لم تكتشف سيادتكم
العيب فهل يمكن أن تسحب السيارة على الأقل إلي

المكان الأقرب (إلي العمران). سأقوم بالطبع بدفع التكاليف.

ب: هذه ليست هي المشكلة عندي. أنت ترى، فسيارتي لم تعد الطراز الأحدث، ولا تستطيع قطرها. غير أنني في كل الأحوال يمكنني الاتصال بخدمات سحب السيارات. حتى تتمكن من مساعدتك بأقصى سرعة. نريد ابتداءً أن نتأكد بأنفسنا إن كنا لن نكتشف العيب.

(أ) يجد نفسه في مأزق، لا يلزمه أن يقدم تبريراً لـ ب في الموقف المحسوس، ولما كان (أ) غير قادر على أن يخرج من هذا المأزق وحده، فإنه يحاول أن يدخل ب. في الحدث وأن يفهمه قصده من خلال نص. يدرك (أ) بناءً على خبراته الاتصالية والاجتماعية أن (ب) لا يجب أن يستجيب لطلبه بأية حال من الأحوال، لكنه يستطيع أن يفترض معايير عامة للحدث، ويتوقع بناءً على ذلك أن (ب) يعمل وفق هذه المعايير. وبذلك ينطلق (أ) من ذلك إلى أن يعلل طلبه إلى (ب) حتى يحفز (ب) بهذه الطريقة لكي يقدم على تنفيذ الطلب. وأوضح (ب) الذي

أعلن عن استعداده لمساعدة (أ) في المقابل أنه في الحقيقة مستعد للبحث عن العيب، ولكنه أيضاً لا يمتلك المعارف الضرورية لذلك. قام (أ) بعد ذلك بإفهام (ب) أنه في حالة عدم عثور (ب) علي العيب يود أن تسحب سيارته. ولم يعلل هذا الطلب، ولذلك يحاول أن يحفز ب من خلال إعلانه بأنه ليس ملزماً أن يعمل هذا الصنيع مجاناً. يستند (ب) أخيراً إلى معايير السلوك العامة، وأفهم (أ) أنه لن يلبي طلبه. أفهم (أ) من خلال هذا النص (ب) قصده، أما (ب) فقد عرف على نحو مميز قد ضم في الفعل اللغوي ل (أ)، ليوجد الحالة التي يرغبها (أ).

إن هذا المثال النصي البسيط الذي كونه والمناسب لموقف كهذا مناسبة تامة يعرض ظواهر إنتاج النص التي نوقشت إلى الآن بشكل جلي. أولاً صار واضحاً أن المثال (13) مثال نمطي لنشوء تفاعلي للنصوص وأيضاً للتنسيق بين الأحداث التي تعد أساس النشاط اللغوي، بيد أن النص المثال يوضح أيضاً أن إنتاج النص لا يحدث مطلقاً دون قيد، بل هو نشاط مخطط ينبغي أن تحدثه حال يرغب المنتج

فيها. ثمة ظاهرتان أخريان لم تناقشا إلى الآن بعد ستتضحان أخيراً من خلال هذا المثال خطط الحدث ليست أبنية ثابتة، ولكنها يمكن أن تتغير تبعاً للشروط. ولذا فإنه في (13) يفترض (أ) ابتداءً أن الحال المرغوب فيها يمكن أن يحدث من خلال اكتشاف المتلقي موضع العطل في المركبة، وحين أوضح هذا (الأخير) أن قدراته يمكن ألا تكفي لذلك، فإنه يلتمس (أ) منه أن يسحب سيارته. ومن خلال عملية الإدراك، أي التقويم الإدراكي لموقف الحدث والمشاركين فيه اختار منتج النص تلك المقولات اللغوية التي تتناسب اجتماعياً وموقفياً أيضاً مع سياق الحدث المعطى. ويمكن الآن أن يحدد تعريف النص العام الذي سبق ذكره على النحو التالي:

النصوص تتابعات من المنطوقات ينتجها متحدث أو عدة متحدثين أيضاً في موقف حدثي معين بقصد محدد لكي يحدث بذلك حالة يرغب فيها المنتج أو المنتجون. وينطلق المنتج بذلك من أن المتلقي يمكنه أن يتعرف إلى قصد المنتج عن طريق المنطوق وكذلك بالاشتغال على عوامل موقفية وسياقية

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

ومصاحبة للنص. وبعبارة أخرى: تنعكس في نتائج النشاط اللغوي نتائج التقويم الإدراكي لموقف الحدث والمشاركين فيه على نحو جلي.

إن هذا الاقتراح لتعريف (النص) ما يزال يبقى كثيراً في المسائل مفتوحة علينا أن نبحث لها عن إجابات فيما يلي. فقد نظر إلى الآن إلى قضية إنتاج النص من موقف عام للغاية، يكفي بوجه عام لإيضاح القصد والتفاعل والتحديد الاجتماعي للهدف باعتبارها الخواص الأساسية لهذا النشاط اللغوي.

ومع ذلك فإنه حين لا يعاد إنتاج نصوص بشكل بسيط، بل تنشأ عن أحداث بنائية معقدة فإنه يطرح السؤال التالي نفسه وهو ما المعرفة الضرورية لإنتاج نص ما وما الوحدات الممثلة له الخاصة بأنساق المعرفة أو العلم (الدراية) المختلفة. وفيما يلي نتوجه إلى مشكلة استيعاب النص التي حركت منذ وقت مبكر جداً إلى مركز اهتمام الدرس اللغوي النصي، وإلى وصف المعرفة وتمثيلها وتفعيلتها لعمليات إنتاج النص.

4-2 أنساق المعرفة وإنتاج النص

قد أشير في 2-2 بشكل عام إلى أننا نستخدم خبرات اجتماعية لإنتاج النص وتفسيره، وأنا ننشط المعرفة التي نحول بها التمثيل الذهني لنص ما إلى بنية منطوق، مما يمكننا من جعل مضامين الوعي ممكناً نقلها. ويبين تعقد بنية النص أنه لإنتاج متكلم ما النص تنشط معرفة ذات طبيعة مباينة. ومع أن عملية تنميط أنظمة العلم أو المعرفة المفردة التي تسهم في عمليات استيعاب النص ما تزال في الوقت الحاضر غير ممكنة إلى حد بعيد فإنه يبدو أنه من المسوغ الانطلاق من أن الأنساق المعرفية التالية ضرورية لإنتاج النص: المعرفة اللغوية والمعرفة الموسوعية والمعرفة التفاعلية.

1-4-2 المعرفة اللغوية

ثمة تحديد مألوف، وهو أن كل نص يتحقق من خلال نسق لغوي معين، وبعبارة أخرى: نحتاج لإنتاج نص ما إلى معرفة نحوية ومعجمية أيضاً. ولهذا فإن

منتج النص يقف على معارف، مثل كيف تتحقق الجملة الخبرية، وما القواعد التي تجرى وفقاً لها عمليات الإضمار. كيف توزع معلومات الأساس، الموضوع الذي يوضع مرتبطاً بخطة الحدث، على القضايا، أي الوحدات الدلالية الأساسية للجملة المفردة، وما القواعد التي يمكن إفهام السامع تبعاً لها إذا ما كان موضوع معين، تحدث عنه في النص، معروفاً من قبل أو إذا ما كان هذا الموضوع، قد ذكر من قبل إلخ. وأخيراً تندرج ضمن المعرفة اللغوية أيضاً معرفة عن أي وحدات معجمية تشغل مواقع نحوية في بنية الجملة، كيف تترايط الجمل، ما القواعد الصوتية التي يمكن من خلالها إبراز عناصر الجملة بشكل خاص، أي التركيز عليها إلخ.

إن هذا السرد لمجالات المعرفة النحوية لا يدعي الكمال، بل إنه ينبغي أن تصور في الأغلب من خلال أمثلة مختارة أنه ثمة حصيلة بالغة التفريع من القواعد والوحدات اللغوية ضرورية لإنتاج النص، تحدد البناء الصوتي والنحوي والدلالي للمنطوقات التي تكون النص. ولما كانت النصوص تتكون في

أدنى صورة لها من منطوق واحد، ولكنها في العادة تتشكل من تتابع من المنطوقات تصور مضامين النص فإننا نحتاج أخيراً إلى معارف أيضاً عن كيفية التدليل على أوجه الربط بين الوحدات الدلالية في المنطوقات، وإلى معارف عن ربط الوحدات الدلالية الأساسية في مركبات، وكيف تدمج أوجه الربط في النص في شبكة من العلاقات الدلالية.

في نظرنا الحالية لم يعن إلى الآن بأن من أجل إنتاج النص يمكن الرجوع أيضاً إلى وسائل سيميوطيقية أخرى، يمكن أن تعوض بشكل محدود وسائل النسق اللغوي، بل إنها يمكن أن تصاحبها وتقويها أيضاً من خلال ورودها التلقائي. وتذكر هنا في المقام الأول تعبيرات الوجه وإشارات اليد التي لا خلاف حول وظيفتها التعبيرية، ولذلك لا يجوز ألا تراعى عند تعريف النص. وفي الفصل الرابع ستوصف بعض هذه الوسائل المصاحبة للغة.

إن المعرفة اللغوية التي وصفت بدايةً بأمثلة من خلال قواعد مفردة في النحو ومن خلال بعض قواعد

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

معجمية يمكن أن تصنف تبعاً لوظيفتها بشكل أعم
إلى نمطين من المعرفة:

(أ) معرفة لغوية نحتاج إليها لنقل التمثيلات
الذهنية إلى أبنية صوتية، معرفة - باختصار -
ضرورية لعمليات تنظيم الصوت - والمعنى.

(ب) معرفة لغوية نحتاج إليها للبناء اللغوي
المركب على المستويات المختلفة للبنية، مثلاً لائتلاف
الرموز المعجمية، ولربط القضايا بمركبات أو أبنية
قضوية. إن معرفة البناء اللغوي المركب - على الأقل
مجالات هذه المعرفة - توصف في الأغلب أيضاً بأنه
معرفة التماسك، يفهم من خلالها معارف خاصة يمكن أن
تنظم تبعاً لها المنطوقات والقضايا أو المركبات
القضوية، مثل أوجه الإنجاز أو المركبات الإنجازية في كل
مدمج جامع (قارن عن ذلك بالتفصيل 2-6-3 و 2-6-4).

2-4-2 المعرفة الموسوعية أو الموضوعية

يكتسب أعضاء أية جماعة بشرية في
احتكاكهم الفعلي ببيئتهم الطبيعية والاجتماعية

وعلى أساس التوزيع الاجتماعي للعمل أيضاً معرفة خاصة بالعالم تختلف في كمها وعمقها. ويمكن بناء على ذلك أن تتضمن أشكال تقويم شديدة التباين. فالتفريق المتزايد بين المجالات الاجتماعية للاتصال والتعقد المتنامي في العمليات الاجتماعية لاتخاذ القرار تتطلب بقدر أكبر بشكل مستمر أشكال تنظيم ووسائل اتصال أيضاً، تناسب تلك الأهداف المميزة - فلا خلاف حول الأهمية التي تلعبها المعرفة الموسوعية أو الموضوعية نتيجة لذلك بالنسبة لعمليات استيعاب النص. أما أن يكون من السائع - افتراض أن المعرفة الموسوعية مجال معرفي مستقل، فمسألة تتوقف الإجابة عنها إجابة حاسمة على أي الفروض من التي توائم عمليات استيعاب النص فيما يتعلق بوضع نموذج للمعجم والمعرفة اللغوية. فالمعرفة المعجمية أي المعرفة الدلالية تعد اليوم إلى حد بعيد المعرفة الغالبة التي يمتلكها أعضاء جماعة بشرية معينة وتوفر لهم من خلال تمثيلات دلالية لصور التسجيل المعجمي. فقد أزلت ما تسمى بالمعرفة الموسوعية تلك المعرفة الغالبة، مما أدى ضرورة إلى استخدام خازنة معرفية

أخرى بالذاكرة إلي جانب المعجم، تضم تلك المجالات المعرفية، التي يمكن أن توصف بأنها معرفة موضوعية أو معرفة الخبراء. وسواء أكان تقسيم المعرفة المعجمية في إطار المفهوم المناقش هنا مبرراً أو غير مبرر فإنه ما يزال لا يمكن في الوضع الحالي للبحث والإجابة عنه إجابة مؤكدة، حتى أنه يجب ابتداءً أن تبقى المسألة مفتوحة حول ما كان الأمر يتعلق حقيقة مع المعرفة الدلالية والمعرفة الموسوعية بنظامي معرفة متباين، يمكن التفريق بينهما على أساس اختلاف في النشأة واختلاف في خواص الوظيفة أيضاً. ومع ذلك فإنه على كل حال يجب الإشارة إلى أنه من الصعوبة البالغة وضع حد دقيق بين مجالي هاتين المعرفتين، بمعنى أن يقرر أين تنتهي المعرفة الدلالية وأين تبدأ المعرفة الموسوعية. في الوقت الحالي ما يزال من غير الواضح إلى حد بعيد إذا ما كان يجب أن تنظم كل من المعرفة الدلالية والمعرفة الموسوعية وفق المبادئ الدلالية ذاتها أو إذا ما كانت المعرفة الموسوعية تتبع مبادئ بنيوية أو وظيفية أخرى. وبغض النظر عن الكيفية التي سيجيب من خلالها البحث عن تلك

المسائل التي ماتزال مفتوحة، فلا خلاف في أن المعرفة الموضوعية تلعب دوراً حاسماً للغاية بالنسبة لاستيعاب النص. ومادامت تلك الأسئلة المطروحة ستظل مفتوحة إلي حد بعيد فإنه يبدو من المبرر افتراض نظام معرفي مستقل يوحد تلك المعرفة الخاصة، التي نكتسبها بناءً على التقسيم الاجتماعي المحدد للعمل. وسوف تتضح بشكل جلي عند وصف عمليات تفسير النص الأهمية التي تعزى إلى المعرفة الموضوعية أو المعرفة الموسوعية (قارن 2-6).

2 المعرفة التفاعلية

إن إنتاج النص - كما عبر عن ذلك من قبل مراراً بشكل صريح وضمني أيضاً - ليس هدفاً في حد ذاته. فإنتاج النص دائماً هو تحقيق المقصد المتكلم، يسخر دائماً لتحقيق حاجة اتصالية. ولما كانت النصوص من منشئها تشكل الصيغة الأساسية للاتصال اللغوي فإنها تفهم على أنها وسيلة شاملة لتحقيق مقاصد أفراد فاعلين اجتماعياً، وتعد وسيلة

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

شاملة لإحداث الأحوال التي يرغب المتكلم فيها. وهي وسيلة يستطيع المتكلم بها الوصول إلى شئ في أثناء عملية التأثيرات الاجتماعية المتبادلة.

وقد أشير مراراً إلى التوجه نحو هدف الفعل اللغوي في أثناء ذلك في كل مقترحات النماذج القائمة على الحدث أو النشاط، تلك التي نشأت دخل علم اللغة وعلم النفس الإدراكي ونظرية الحدث ومنطقه أيضاً، بحيث لم يعد هذا الجانب الجوهرية في الفعل اللغوي اليوم موضع تساؤل (قارن هارتونج وآخرين 1974، وتشتماير) Techtmeier 1984، وموتش / فيهقجر (Motsch/Viehweger 1981).

ومع ذلك لا يجوز أن يحجب الإجماع الموجود في المصادر نظرنا عن أنه ما يزال يفهم ضمن أهداف النشاط اللغوي، كما هي الحال من قبل، ظواهر شديدة التباين، ففي كثير من مقترحات النماذج يسوى بين مفهوم الهدف والنتيجة المحددة للحدث. وعلى العكس من ذلك فإن منطلقات بحثية أخرى تدرك ضمن الهدف حالة الوعي للمتلقى الذي ينبغي

التوصل إليها من خلال إتمام حدث لغوي. ولقد تحاول مقترحات نماذج أخرى أخيراً أن تستنبط أهداف الفعل اللغوي من أنشطة عليا، وترى أن الهدف من:

(14) أعطني من فضلك البراية!

(15) من فضلك بأقصى سرعة!

إن للمتكلم في الحالة (14) هدفاً، وهو أن يستطيع أن يكتب بشكل أفضل، وفي الحالة (15) أن يقوم برحلة كبرى بالسيارة. إن طرائق البحث التي تربط بين مفهوم الهدف وأحوال ذهنية، ينبغي أن تنشأ لدى المتلقي بناء على منطوق (14)، و(15) تصف في المقابل هدف هذين المنطوقين بأن المتلقي يدرك أن المتكلم يريد منه أن ينجز حدثاً معيناً. إن مفهوم الهدف الممثل هنا يتبع محاولة الإيضاح المذكورة أخيراً، مما لا يدع مجالاً للخلاف بأية حال من الأحوال أن الأهداف التي يقصد المتكلم الوصول إليها مع (14) و(15) يمكن أن تنتظم في سياقات نشاطات عليا، وبذلك أيضاً تسخر لأهداف عليا. وبالنسبة لمجال لإيضاح اقتراح النموذج المتمثل هنا لا تفهم تلك

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

إلا بوصفها أهداف الفعل اللغوي التي يستدعى معها من خلال منطقات لغوية مضامين وعي محددة لدى المتلقي. وربما يبدو هذا من النظرة الأولى أمراً مقيداً، ولكنه سيتضح في 1-3-4-2 أن مفهوم الهدف المدرك بشكل منظم يمكن أن يوضع في علاقة مع التعبيرات اللغوية، وأن يحدد بذلك تحديداً دقيقاً.

3-4-2 المعرفة الإنجازية

حين ينتج متكلم نصاً ما فإنه يريد أن يحدث به شيئاً ما، يريد به مثلاً أن يستدعي ردود فعل سلوكية محددة لدى المتلقي أو أن يتوصل إلى حالات معينة في بيئته الطبيعية والاجتماعية، تجعل أفعال المشاركين الآخرين في الاتصال ضرورية، ثم يمكن أن ينطلق من أن المتكلمين في جماعة معينة لديهم معارف خاصة، ولديهم معارف عن تلك الحالات التي يمكن أن تحدث في مواقف معينة من خلال منطقات لغوية وما المنطقات التي يمكن بها إفهام المتلقي المقصود. ومع أن النصوص بوصفها تتابعات معقدة

من المنطوقات تنتظم في الأغلب في سياقات حديثة معقدة وأن هذا الترابط يحدد قصد الفعل اللغوي تحديداً شديداً فإنه لا يمكن في هذا الأمر إغفال أن الحال التي يقصد المتكلم أن يحدثها لا يمكن الوصول إليها إلا حين يستطيع المتلقي بمساعدة النص التعرف على ذلك القصد الذي يهدف إليه متكلم ما من خلال إنتاج نص ما، وعلى أي نحو يجذب المتلقي إلي الفعل اللغوي، وكيف ينبغي أن يسهم في إحداث الحال المرغوب فيها.

ومع أن طلب الفهم لا يمكن أن يكون هو الهدف الوحيد للفعل اللغوي، فإنه بغير شك أحد الشروط الأساسية لاستمرار المتلقي في استيعاب نص ما إدراكياً بوجه عام ويمكنه بناء على ذلك إحداث الحال التي يرغب المتكلم فيها.

و حين يقصد منتج النص إلى تشكيل بنية المنطوق في نص ما بحيث يمكن أن يجري المتلقي بمساعدة النص تقويماً مناسباً لتحقيق المنتج الهدف، وحين ينطلق منتج من أن النص في موقف ما يمكن أن يكون وسيلة ملائمة لإفهام المتلقي القصد، فإنه بذلك

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

يكون وسيلة ملائمة لإفهام المتلقي القصد، فإنه بذلك يكون قد عبر ضمناً عن أن ثمة معارف خاصة ضرورية لذلك، وهي - مع أنه قد وصفت هنا بصورة متفرقة - ترتبط بالمعرفة اللغوية ارتباطاً وثيقاً. نحن نخرج من ذلك إلى أن اللغة ترصد من خلال قواعدها ومعجمها أيضاً وحدات تبين أي قصود يسعى إليها متكلم في موقف ما من خلال منطوق ما.

طرحنا إلى الآن في المراجع بطرق مختلفة نماذج العلاقات بين المعرفة التفاعلية أي المعرفة الخاصة بالفعل اللغوي، وكذلك المعرفة اللغوية، وهكذا ينطلق هنده لانج Hindelang (1978) ورولف (Rolf) (1983) وآخرون من أن للمتكلم والسامع معارف عن أنماط الهدف التي تصنف وفقها صياغات مميزة للمنطوق، ويمكن التوصل من خلالها إلى هدف ما، فعلى سبيل المثال يمكن أن تصنف الصياغات التالية للمنطوق حسب هنده لانج (قارن 2-3-4-2) وفق نوع الهدف أو نوع الحدث اللغوي «الطلب المتناسق».

(i) تعبيرات أدائية مثل:

أرجو منك أن تحضر معك الكتاب غداً،

(ii) جعل استفهام في صيغ نمطية، مثل:

هل تستطيع أن تحضر معك الكتاب غداً؟ هلا
استطعت أن تحضر لي الكتاب غداً؟ ألا يمكنك
أن تحضر لي الكتاب غداً؟ إلخ.

وفي المقابل لا يمكن أن تتحقق صور الطلب
المتناسقة من خلال تعبيرات مصدرية. بعبارة أخرى:
تصنف أقسام من صياغات المنطوق إلي نمط من أنماط
الحدث اللغوي، ويختار المتكلم من تلك الأقسام في
موقف معين لتحقيق هدفه من الحدث ما يفترض أنه
يمكن من خلاله إفهام المتلقي قصده بأفضل السبل،
وأن تلك الصياغة للمنطوق مناسبة اجتماعياً وموقفياً
لتحقيق الهدف. لا يفترض مع تلك المعالجة المنهجية
أية علاقة مباشرة بين المعرفة اللغوية والمعرفة
التفاعلية، بحيث تؤشر وفقاً لها تعبيرات لغوية إلى
أهداف الفعل اللغوي. بيد أنه لا يفترض على الأرجح
إلا وجود ارتباط بين مجالي معرفة، ولا يطالب بأن
تتجلى المعرفة التفاعلية في بداية المنطوق وتنعكس

في التعبيرات اللغوية. وفي المقابل تمثل مقترحات نماذج أخرى بنظرية الحدث وجهة النظر القائلة بأنه يوجد في نحو كل لغة مقولات تؤثر إلى أنماط الحدث اللغوي، وتمكن المنتج بذلك من أن يستطيع إفهام قصد ما. وعلى ذلك ينطلق كل من سيرل Searle (1977) وموتش (1987) وآخرين من أن صيغ الجمل تشكل مؤشرات جوهرية، يمكن لمتكلم ما من خلالها أن يصوغ قصده بشكل غير مباشر:

(16) أعطني من فضلك الملح!

(17) هل تتصل بي غداً هاتفياً؟

(18) يحمل بيتر الطرد إلى البريد.

فقد تحققت منطوقات الجمل من خلال صيغة الأمر وصيغة الاستفهام وصيغة الإخبار، حيث أدخلت كل صيغة من صيغ الجمل هذه في علاقة مع نمط الهدف في الفعل اللغوي. صيغة الأمر مع أوجه الطلب، وصيغة الاستفهام مع الأسئلة وصيغة الإخبار مع الجمل الخبرية. وبناء على الدور الجوهرية الذي يعزا إلى صيغ الجمل في مقترحات النماذج هذه، فإن

تلك الصيغ توصف في الغالب أيضاً بأنها مؤشرات الأساس، بينما توصف الأدوات والتنغيم والظواهر اللغوية الأخرى التي يمكن أن تعطي (أو تشارك) كذلك مؤشراً إلى مقاصد المتكلم (المتكلمين) بأنها مؤشرات ثانوية.

يمكن بالنسبة لكلا الفرضين إيراد مزايا وعيوب لهما أيضاً، فيمكن لتحليل الحدث اللغوي أن ينطلق من أن لأنماط الأحداث اللغوية مطابقة مباشرة في النحو الذي يفترض بذلك أن أنماط الأحداث اللغوية لها علاقة مباشرة بصيغة الجملة ومن خلالها بصيغة الفعل وترتيب المفردات أيضاً، إنها تجزئ النصوص بطريقة قابلة للتحديد بدقة إلى أحداث لغوية أساسية، وتبين ما النمط الذي يشكل من خلال وحدات ما نصاً ما. ومن جهة أخرى لا يجوز أن نغفل في هذا الأمر أن كل منطوق تحقق في صيغة الاستفهام لا يشكل حتماً حدث سؤال. وكذلك ليس حتماً أن تلحق كل المنطوقات في صيغة التقرير بنمط «الخبر». ففي الحالات المذكورة لا يتوافق نمط الجملة مع نمط الحدث للغوي أو نمط الهدف بأية حال من

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الأحوال. وبذلك لا توجد مشكلة التفسير المغاير (غير المباشر) التي برزت لطرائق البحث التي لا تربط أنماط الحدث اللغوي بصيغ الجمل. ومع ذلك فقد تشكلت بالنسبة لها صعوبات أخرى، مثل إقامة علاقة داخلية معينة بين نمط الحدث اللغوي وصياغة المنطوق.

لقد نوقش الفعل اللغوي إلى الآن على مستوى مجرد إلى حد بعيد. فمن المسائل الأساسية في تحليل النص القائم على الحدث مسألة ماذا يفهم تحت الحدث اللغوي وكيف يحدد ذلك الحدث تحديداً دقيقاً في إطار نموذج تحليل النص. ومثل كثير من المقولات الأساسية الأخرى في نظرية الحدث (قارن) التعريفات المختلفة التي أوردت إلى الآن لمقولة الهدف) ظل مفهوم الحدث اللغوي أيضاً لزمناً طويلاً ليس غير دقيق فحسب، بل استخدم بدلالات متعددة. ما حجم الحدث اللغوي، هل يتوافق مع منطوق الجملة أم يتطابق مع النص، سؤال ظل لزمناً طويلاً غير واضح. يوجد لدى سيرل (Searle) (1977، 34) خاصة إشارة إلى أنه يوجد لكل فعل كلامي ممكن جملة ممكنة أو

سلسلة ممكنة من الجمل، يشكل منطوقها الصحيح في سياق معين تمام فعل كلامي.

أما فان دايك Van Dijk (1972، 51) فيسوي بين نص وفعل كلامي أو حدث لغوي، وعلي العكس من ذلك يمثل كומר (Jummer) (1972، 51)، ومارتنز Martens (1974) وفان دايك Van Dijk (1975) وجهة النظر القائلة بأن الفعل الكلامي يتحقق دائماً من خلال جملة، حتى إن حد الجملة يمثل بالنسبة لتحديد الفعل الكلامي مؤشراً مهماً. إن المطابقة بين الحدث اللغوي والنص التي تقابلنا ابتداءً في المرحلة الأولى من تحليل النص القائم على (نظرية) الحدث تتأكد إشكاليته من عدة وجوه. أولها أن ذلك الرأي يخفى إلى حد كبير الجانب الخلاق للنشاط اللغوي، حيث لا تعد النصوص وفقاً له مجرد إعادة إنتاج، بل إنها تتشكل من أجزاء أساسية مستقلة قابلة للتحديد. وبذلك يمكن أن ينطلق من ذلك أيضاً إلى أن الأحداث اللغوية الأولية تشكل الوحدة الجوهرية الممثلة للمعرفة الإنجازية، وتترابط بعضها ببعض عند إنتاج النص حسب خطة الحدث على نحو خاص، وتتكون بهذه

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الطريقة أحداث مركبة. وثانيها تتنافى المطابقة بين نص وحدث لغوي مع مبادئ التكوين الأساسية التي تعد أساس كل من إنتاج النص وتفسيره.

ومع وجهة النظر المتبناه هنا إلى تشكل المعرفة الإنجازية وفقاً لها مجالاً معرفياً أساسياً من المعرفة التفاعلية. يتبنى كذلك الرأي القائل بأن المعرفة الإنجازية لا تضم سوى معارف عن الأحداث اللغوية الأولية التي يؤول ترابطها إلى أحداث مركبة، بل معارف أيضاً عن أبنية الإنجاز والأهداف المرتبطة بها بشكل منظم (قارن 2-3-4-2).

وبعد هذا التحديد العام للمعرفة الإنجازية بأنها مكون أساسي من مكونات المعرفة التفاعلية ينبغي فيما يلي أن يحدد مفهوم الحدث اللغوي الأساسي تحديداً أكثر تفصيلاً. ففي المراجع الخاصة بنظرية الفعل الكلامي ونظرية النشاط اللغوي أيضاً يوجد عدد كبير من المقترحات الخاصة بالتعريف التي تتفق على الأقل برغم التعليقات والمبررات النظرية المتباينة وأوجه الخلاف المنهجية الجوهرية في أن مفهوم الهدف

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

يشكل بالنسبة للحدث اللغوي الأساسي مقولة جوهرية (قارن سيرل Searle 1977 وفوندرليش Wunderlich 1976م، وسيرل/ فادرفيكن/ Searle / Vanderveken 1975). ينبغي أن يفهم تحت الحدث اللغوي الأساسي فيما يلي حدث إنجازي، يتحدد حسب موتش/ باش Motsch/ Pasch (1987) وموتش Motsch (1987) من خلال السمات المقولية التالية:

حدث إنجازي (= منطوق، مقصد، شرط، نتيجة)

ح إن = (ق، ص، ش، ن)

حيث:

ق: منطوق تعبير لغوي محدد في زمن محدد

(ti)، فهو له بناء فونولوجي وتركيبى ودلالي خاص:

ص: يمثل قصد المنتج، للوصول من خلال المنطوق (ق)

إلى هدف محدد، سلوك طرحه المنتج للمتلقي أو

المتلقين الذين يوجه إليه أو إليهم المنطوق

اللغوي. وثمة أهمية بالغة هنا وهي أن منتج هذا

الهدف يريد حقيقة إلى الوصول إليه أنه يؤثر

هدف على هدف وأنه مقتنع بأنه يستطيع الوصول إليه من خلال المنطوق (ق).

ش: تخص كمية محددة من الشروط التي يجب أن تتوفر في الموقف الذي ينتج فيه (ق) حتى يمكن أن يتم الحدث الإنجازي بنجاح.

ن: يشير إلى كم من النتائج التي يمكن أن تقع مع إتمام حدث إنجازي. وسوف نعلق فيما يلي في إيجاز على الخواص الثلاثة الأخيرة من الخواص المقولية المذكورة للحدث الإنجازي، إذ يشار من خلال المقولة (ق) بوضوح إلى قصد الفعل اللغوي. وبذلك يرمز (ق) إلى إرادة متكلم ما الوصول إلى حال معينة من خلال المنطوق اللغوي. ويفترض هنا أساساً أن المتكلم يستطيع أن يفهم المتلقي قصده من خلال منطوق لغوي (ق)، وأن المقصد يمكن أن تؤشر إليه مقولات لغوية محددة. ولا يتطلب ذلك بأية حال من الأحوال أن تؤشر المقولات اللغوية إلى المقاصد بوضوح، وأن تكون مقروءة ببساطة من خلال هذه المقاصد. بل إن التأشير Indikation يعني أنه من

خلال المقولات اللغوية حُصرت أو أبعدت طرائق للتفسير، وأنه يمكن ربط أوجه تفسير مفضلة بمقولات لغوية.

ومن المؤكد أنه ليست هناك حاجة إليّ تعليل خاص لاشتراط الأحداث الإنجازية سياقات حدثية وتكوينات حدثية. ويمكن أن توضح بعض الأمثلة ذلك بشكل عاجل للغاية. فعلى سبيل المثال يشترط الأمر بوصفه صيغة خاصة للطلب إطاراً مؤسسياً يمكن وصفه بشكل تجريبي من خلال «مؤسسة عسكرية». ومن جهة أخرى لا يمكن للمتكلم أن يصدر أمراً إلا إذا كانت لديه كفاءة طلب خاصة، وإذا كان يمكنه من واقع وظيفته أو موقعه أو يوجه أوامر. أما فيما يخص المتلقين فإنه ليست لديهم رغبة في تنفيذ الأمر، وبالنسبة للمتلقين يكون هذا النمط في موقف حدثي معين مقيداً، فهو حدث طلبي يجب عليّ المتلقي تلبية، فإذا لم يعمل فإن لدى المنتج إمكانات جزائية ذات أشكال مختلفة. ويمكن أن يتحدد للأحداث الإنجازية أيضاً أوجه تخصيص مماثلة أنه يفترض أنه من خلالها يبلغ المتلقي شيئاً ما. ومما يعد

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

جوهرياً بالنسبة لأحداث معلوماتية أن المنتج يجب أن يكون مقتنعاً بالشيء الذي يقصد إبلاغه، وأنه يجب أن يعرف أن الشيء موجود وأنه عند الحاجة يمكن إيراد الأدلة على وجوده.

وفي داخل الأحداث المعلوماتية يوجد قسم من الأحداث الإنجازية يقرر المنتج من خلالها أن المتلقي لا يوصل المعلومة التي بُلِّغَتْ له. وتشتت الأحداث المعلوماتية من هذا النمط أوضاعاً اجتماعية محددة بين المشاركين في الحدث وأيضاً مضامين حديثة خاصة، يفترض المتكلم أنها ممتعة ومهمة للمتلقي. ولذا فإنه ليس ممكناً بالتأكيد أن يُسرَّ للمتلقي أن:

(19) فيينا عاصمة النمسا.

(20) يغلى الماء عند درجة 100 مئوية.

بينما تُسرَّ إليه معلومات مثل:

(21) رسب بيتر للمرة الثالثة في امتحان القيادة.

تعكس الشروط المدركة من خلال مقولة «ش» - كما توضح الأمثلة بشكل مؤكد ظواهر شديدة التباين للفعل اللغوي. فمثلاً تتطلب أحداث إنجازية

كثيرة علاقات اجتماعية خاصة بين المشاركين في الحدث أو تشترط لتمام موفق سياقات موقفية محددة أو مؤسسية أيضاً، وأحداث أخرى تجعل دوافع معينة أو مواقف أو قدرات المتلقي ضرورية أو تقرر أولويات لأحد المشاركين في الحدث أو لكليهما أيضاً.

ويمكن أن نقرر هنا بإيجاز ابتداءً أن المتكلمين في جماعة معينة لديهم معارف خاصة وتلك الشروط التي يمكن من خلالها تحقيق حدث إنجازي بشكل موفق. إن هذه المعرفة الخاصة عن شروط الحدث، التي يمكن تسميتها المعرفة الشرطية هي جزء محوري من المعرفة الإنجازية. يمكن من خلال وجهات النظر التي عرضنا لها حتى الآن حول بنية الأحداث الإنجازية ووظيفتها، الانتهاء إلى أن الهدف المرتبط بالحدث الإنجازي والشروط الضرورية لتحقيق الهدف تشكل نموذج الإنجاز الذي يمكن للمتكلم عند إنتاج النص أن يختار منه اعتماداً على التقويم الإدراكي لموقف الحدث والمشاركين فيه. فيمكن مثلاً أن يحقق طلب متناسق اعتماداً على عملية الإدراك للموقف والمتلقي.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

(22) لقد نسيت اليوم حافظة نقودي. هل تدعوني إلى فنجان قهوة؟ سأرد لك ذلك في فرصة أنسب.

(23) هل تتفضل علي اليوم بفنجان من القهوة؟

(24) يجب علي اليوم أن أتنازل عن قهوتي. لقد نسيت لغبائي حافظة نقودي في البيت.

توضح الأمثلة أن الطلب المتناسق يمكن أن يتحقق من خلال حدث إنجازي أساسي أي من خلال طلب يعلل من قبل المتكلم وكذلك من خلال حدث إنجازي آخر ينبغي أن يحفز المتلقي لتنفيذ الحدث، ومن خلال إيضاح الحالة المرجحة أيضاً دون أن يطلب من المتلقي القيام بحدث معين، أي حدث إنجازي يختار في موقف معين هو قرار استراتيجي للمنتج. لقد صار واضحاً في ضوء الأمر الذي سبقت مناقشته، أنه بإتمام الحدث الإنجازي تخلق وقائع لم تكن موجودة من قبل، أي أننا نمتلك معارف عن أي الوقائع يمكن أن تحدث وما النتائج التي يفرزها إتمام

حدث إنجازي. فحين يتم متكلم ما ، لديه الكفاءة اللازمة في موقف معين، حدثاً إنجازياً، مثل:
(25) أفتتح بها جلسة اليوم.

فإنه يخلق بإتمام الحدث الإنجازي واقعة، لم تكن موجودة حتى وقت الكلام. ويتضح من خلال الأمر أن متلقي الطلب عليه أن يلبي الطلب وأنه في حالة عدم الالتزام به تتوفر لدى المنتج وسيلة جزاء. ولا يسري هذا على الطلب المتناسق. ويعبر عن المعرفة بالنتائج التي تنشأ عند إتمام حدث إنجازي من خلال المقولة (ن). ويفهم تحت (ن) تلك النتائج الاجتماعية التي تنشأ بشكل عرفي عن إتمام حدث إنجازي، وليس تعدد التأثيرات الممكنة التي يمكن أن تحدث أيضاً من خلال أحداث إنجازية. فمثلاً يمكن أن يفهم متلق حدثاً إنجازياً على أنه إهانة أو اتهام أو غيرهما دون أن يكون المنتج قد قصد ذلك. وتجمل هذه التأثيرات في المراجع تحت مفهوم أثر القول.

وكما تلحق الجمل بأنماط للجمل فإنه يمكن الانطلاق من ذلك إلى أن الأحداث الإنجازية أيضاً

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

تتبع أنماطاً من الأحداث. إن السؤال عن أي الأنماط التي تفترض للأحداث الإنجازية ترتبط في المراجع بمعايير التنميط المختارة، وكذلك بفروض حول العلاقة بين المعرفة اللغوية والمعرفة التفاعلية، وبخاصة المعرفة الإنجازية، ذلك السؤال قد أجيب عنه إلى الآن إجابات متباينة (قارن بلمر 1979 Ballmer وسيرل Searle 1976، وفوندرليش 1976 Wunderlich). ويمكن بناءً على تحديد المفهوم السابق ذكره للحدث الإنجازي، والقصد الذي عبر عنه مراراً فيما سبق بشكل صريح أو ضمني، وهو أن اللغات الطبيعية تمتلك مقولات تؤثر إلى الأحداث الإنجازية التي تعبر عن أي قصد رمى إليه المتكلم بحدث إنجازي ما، أن يُحدد نمط الأحداث الإنجازية من خلال المعايير التالية:

حدث إنجازي 1 = (منطوق 1، هدف 1، شروط 1، نتائج 1)

ح إن 1 = (ق 1، هـ 1، ش 1، ن 1)

أي أن نمط الأحداث الإنجازية، نمط الإنجاز، يتحدد من خلال نمط المنطوق ق، ومن خلال نمط الهدف

هـ 1) وكم من شروط خاصة مميزة لنمط الهدف هذا
ش 1) وكذلك من خلال كم من النتائج الاجتماعية
ن 1) يمكن أن تحدث عن إتمام حدث إنجازي (قارن
موتش 1987 Motch). وحين ينطلق من ذلك إلى أن
صيغ الجمل تعرض مقولات النحو تلك التي تتطابق
مع أنماط الأحداث الإنجازية، فإنه ينشأ عن ذلك
التنميط التالي للأحداث الإنجازية:

- 1 - أحداث معلوماتية، نمط هدفها الاعتقاد (س، م)
أي أن للمنتج هدفاً بأن يعتقد السامع أنه على
صواب من أن س قدم واقعة معينة.
- 2 - أحداث الطلب، نمط هدفها التنفيذ (س، م)،
ينبغي أن ينفذ المتلقي (س) حدثاً حدده المنتج أو
يظهر رد فعل سلوكي.
- 3 - أحداث الاستفهام، نمط هدفها القول (س، م)
ينبغي للسامع (س) أن يبلغ المنتج من خلال
حدث الاستفهام معرفة خاصة لا تتوفر للمنتج.
يتشكل كل نمط من هذه الأنماط الإنجازية
الأساسية من خلال كم محدد من أقسام الأحداث

الإنجازية التي ترتبط بناءً على هدف جوهري بنمط الإنجاز، وتُكوّن بناءً على الشروط المتباينة التي تتطلبها، وبناءً على النتائج المختلفة التي تحدث بإتمامها، أقساماً خاصة من الأحداث الإنجازية. ولذا يتفرع نمط الطلب إلى أشكال طلب متناسقة، وغير متناسقة وأوامر، وإرشادات وتعليمات وتوصيات إلخ، تلحق كلها بهذا النمط بناءً على الهدف الجوهري «التنفيذ» (س، م) ومع ذلك تكون بناءً على شروط متباينة أقساماً خاصة من الأحداث الإنجازية. وعلي العكس من ذلك تنقسم الأحداث المعلوماتية إلى تقارير، صور من التأكيد، والزعم إلخ. وكما بينا فيما سبق يمكن أن ينطلق من ذلك إلى أن كل قسم يمثل نموذج حدث خاص، نموذج إنجاز خاص تنتظم من خلاله معرفة خاصة عن الهدف والشروط التأسيسية والنتائج الاجتماعية في بنية معرفية. إن الأمر مع اقتراح التنميط المقترح هنا يتعلق بأنماط المعرفة الإنجازية، أي أنماط أفعال لغوية أساسية، وليس بأنماط من تتابعات المنطوق المعقدة، ولا بمعرفة حول أقسام النص.

2-3-4-2 الأبنية الإنجازية

نعلم من خلال ممارستنا الاتصالية أن الأهداف كثيراً ما لا تتحقق بطرق مباشرة، بل عبر أهداف جزئية محددة فحسب، وأنه توجد للوصول إلى هدف معين إمكانات تحقيق متباينة، يمكن أن يختار منها منتج النص في موقف محدد، وبذلك تشمل معرفة الإنجاز بالمعنى المبين آنفاً زيادة على معارف عن إنتاج أو تفسير أحداث إنجازية أساسية، معارف أيضاً عن تحقيق أهداف أحداث مركبة، ومن ثم عن الشروط التي تترابط وفقاً لها الأحداث الإنجازية، وتدمج في وحدات حديثة، أي وحدات وظيفية مركبة.

تخلف عملية توظيف المتكلم للمكونات المعرفية هذه آثاراً كشهرة في بنية النص، إنها تتجلى في بنية خاصة للمنطوقات التي توصف في الغالب إلى الآن بنية الحدث في النص. أما المشكلة التي صارت بذلك محور الاهتمام قد درست من قبل في 2-3 في إطار وجهات نظر عامة خاصة بنظرية النشاط، ووضحت كذلك بمساعدة المثال النصي (13)، فللوصول إلى

هدف ما لا بد في أغلب الأحوال من إيجاد شروط محددة ابتداءً، أي تحقيق أهداف أو أجزاء من أهداف وسيلية لا يكون تحقيق هدف خاص بوجه عام ممكناً إلا من خلالها. أما أي شروط يعدها المنتج ضرورة لتحقيق الهدف فتعتمد بشكل صارم على نتيجة التقويم الإدراكي لموقف الاتصال والمشاركين في الحدث. ففي المثال (13) فقد عرفنا أن المتكلم الذي حاول أن يدفع المتلقي لتنفيذ حدث ما، الذي يرمي بذلك إلى هدف يحققه السامع (س)، كثيراً إما يقدم تبريراً أو تعليلاً لكون السامع ينبغي عليه أن ينفذ الحدث المرغوب فيه، وليس المتكلم نفسه، حتى يصل إلى الهدف الذي يرغب المتكلم فيه. غير أن المتكلم يستطيع أيضاً من خلال إدراك معارف المشاركين في الحدث وحوافزهم ومواقفهم أن يصل أيضاً إلى نتيجة مفادها أنه يستطيع في الحقيقة أن يلزم السامع بتنفيذ الحدث المرغوب فيه وأن هذا (الأخير) مع ذلك يمكن ألا يكون محفزاً بوجه خاص لتنفيذ الحدث. أخيراً فهو يستطيع أن يوضح للسامع مرة أخرى أنه بوجه عام لديه معارف وقدرات ومواهب لأشكال من

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

تنفيذ الحدث. ويرتبط بكل حدث من هذه الأحداث الإنجازية هدف معين توجد من خلاله في النهاية شروط لكي يتوصل بوحدة منطوق مركبة إلى هدف، التنفيذ، (س،م). إن الأحداث الإنجازية التي تشكل تتابعاً من المنطوقات لا تعد تبعاً لذلك متكافئة فيما يختص بتحقيق الهدف.

إنها تشكل على الأرجح مركبات أحداث إنجازية تتركب بطرق متباينة بناء على الأهداف التي يراد الوصول إليها من خلال الأحداث الإنجازية الفردية.

وهكذا يبدو من المسوغ أن ينطلق من أنه في وحدة حدث مركبة يؤدي حدث إنجازي واحد وظيفة مميزة غالبية، بحيث يمكن أن تكون بارزة لكل من المنتج والمتلقي، على أن تكون أحداث إنجازية أخرى ثانوية بالنسبة للحدث الغالب، أي تتحقق أهداف جزئية تعد ضرورية لتحقيق هدف الحدث الإنجازي الغالب. ويوصف الموضوع الموصوف هنا لدى موتش/ فيهقجر Motsch/ Viehweger (1981) بأنه ربط

براجماتي بين المنطوقات أو تدرج الإنجاز. وقد توصل إلى معارف مماثلة كل من سيرل Searl (1980) وفان دايك van Dijk (1980) وفييرا Ferara (1980 أو ب) الذين ينطلقون من أنه توجد أفعال كلامية رئيسة أو أفعال كلامية غالبية يدعم تحقيقها بنجاح أفعال كلامية فرعية أو أفعال كلامية ثانوية (قارن حول ذلك بالتفصيل شكل 9 وشكل 10). ويمكن أن تكون أحداث الإنجاز المركبة المنتظمة بوصفها سلميات إنجاز من جهتها ثانوية أيضاً أي لها وظائف مدعمة بالنظر إلى مركبات الإنجاز الأخرى، تكفل هي نجاحها، وما يزال في الوقت الحاضر لم يتحدد بعد إلى حد بعيد، ما علاقات التدعيم، أي ما أنماط المساندة الموجودة بين حدث إنجازي غالب أو مركب من الأحداث الإنجازية وحدث إنجازي ثانوي أو مركب من أحداث إنجازية ذات وظيفة ثانوية.

وقد سبقت الإشارة إلى أنماط ممكنة من علاقات المساندة في سياق وصف الشروط التأسيسية لأنماط الأحداث الإنجازية (قارن 1-3-4-2). فقد قيل هناك إن أنماط الإنجاز تمثل الأبنية المعرفية التي تتكون من

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

معرفة بالأهداف الجوهرية، وكذلك الشروط التي يجب أن تتوفر لتحقيق هدف ما.

إن كل شرط من هذه الشروط التأسيسية الذي يمكن أن يصرح به في النص ارتباطاً بالتقويم الإدراكي لموقف الحدث، أي أن يحققه حدث إنجازي، يعكس علاقة تدعيم مميزة.

لعل المخطط 9 يوضح هذه الحال مرة أخرى:

يرتبط بالأحداث الإنجازية ح إن 4-1 أهداف وسيلة لها وظيفة تدعيم نسبة إلى الهدف الجوهرية، فبين الحدث الإنجازي الغالب والأحداث المساندة توجد علاقات تدعيم مميزة، يمكن أن تعد علاقات نمطية (أصلية) بين الحدث الإنجازي الذي يوضح الهدف الجوهرية، والأحداث الإنجازية التي تحقق أهدافاً وسيلة.

بيد أن الهدف الجوهرية الذي يقصد المتكلم التوصل إليه بإتمام حدث إنجازي يدعمه أيضاً أن المتكلم يبلغ السامع عن عمله المستقبلي، ويحاول أن يقدم له معينات على الفهم أو ييسر قضايا فهم

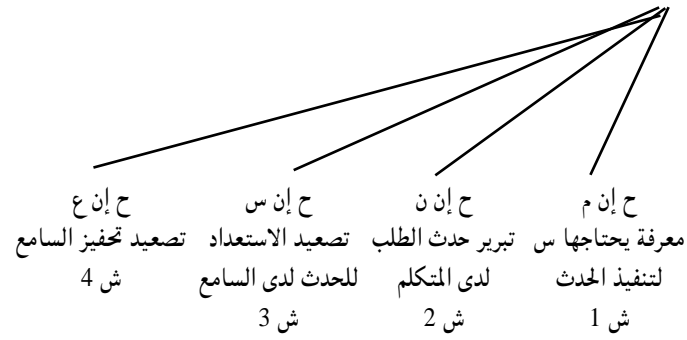
نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

النص. ويختلف نمط علاقات التدعم هذا الذي يتكون عادة من خلال ما يسمى بالمنطوق ما وراء الاتصال وحدث إنجازي أو عدة أحداث إنجازية، عن النمط الذي سبق وصفه بأنه في هذه الحال يستند حدث من الأحداث الإنجازية دائماً إلى الحركة الفعلية لدى الاتصال. أخيراً يمكن أن يحاول المتكلم التوصل إلى الهدف الجوهرى أيضاً بأن يحاول تدعيم الحدث الإنجازي الذي يستطيع من خلال أن يفهم هذا الهدف، ويستطيع من خلاله أن يجعل قصده غير مباشر، وذلك من خلال مركبات إنجازية، أي وحدات أحداث مبرمجة وظيفياً.

وقد أوضح موتش / فيهقجر / Motsch / Viehweger (1981) فيهقجر Vihweger (1983م) هذا النوع من علاقات التدعيم أو المساندة عن طريق نصوص النداء. ففي هذا النوع من النصوص تدعم حدث الطلب المميز بـ * أي ذلك يمثل الهدف الجوهرى، من خلال وحدات حدث كثيرة يمكن أن توصف وظيفياً بأنها تحليل للموقف، وتقويم له وتحليل للهدف وتخصيص للحدث.

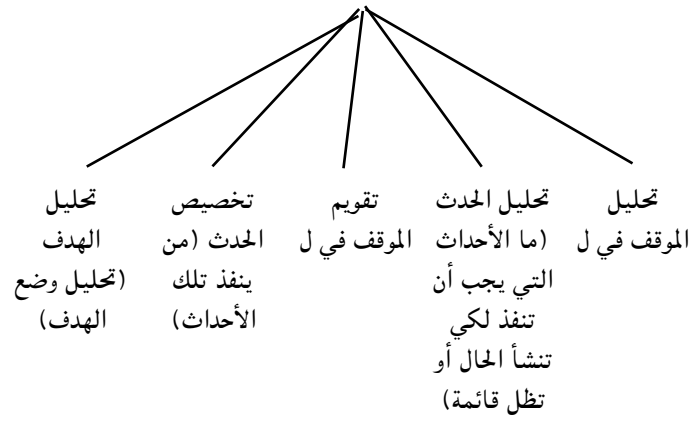
(شكل 9)

ح إن (حدث إنجازي غالب ذو هدف جوهري، تنفيذ، (س، م) (طلب متناسق)



(شكل 10)

* نفذ حدثاً (ح) تنشأ حال معينة ل أو تظل قائمة



2-4-3-3 معرفة بمعايير اتصالية عامة

إن المتكلم الذي ينتج نصاً، لا يملك فقط معارف عن كيفية إمكانه إفهام السامع قصداً معيناً بمساعدة النصوص، وكيف يمكن للسامع أن يتلقى نصاً ما حسب شروط الفهم الفعلية أو المقبولة لدى المتكلم، ومن ثم يتزود بمعينات على تلقيه. إن المتكلم يملك أيضاً معارف عن قدر المعرفة المخترنة في الذاكرة الذي ينشط في حالة معينة بما يوافق تحقيق الهدف، وبعبارة أخرى: يمكن أن ينطلق من ذلك إلى أن المتكلم الذي ينتج نصاً ما، لديه أيضاً معارف عن المعايير الاتصالية الأساسية، ومعارف عن كيفية إتمام إنتاج النص وتلقيه بوصفه نشاطاً تعاونياً في حالة معينة. وقد حاول جرايس Grice (1986) أن يسير هذه المعرفة عن المعايير الاتصالية العامة من خلال مبدأ التعاون العام الذي يتبعه - حسب وجهة نظره - كل المتكلمين:

أسهم في النقاش على نحو ما يكون لزاماً في الموقع الخاص بك بما يتوافق مع الهدف المقبول واتجاه المحادثة التي تشارك فيها.

ويستخلص جرایس من ذلك أربعة مبادئ (مبدأ الكيف والكم والعلاقة والطريقة) ويذهب إلى أنه يمكن أن توجد كذلك مبادئ أخرى اجتماعية، وجمالية وأخلاقية، ولكنها لا تندرج تحت مبدأ التعاون العام. ولا يراد هذا الاستمرار في تتبع ما إذا كانت معايير جرایس، وإلى أي حد تستوعب مجال المعرفة داخل معرفة الحدث اللغوية. وينبغي فضلاً عن ذلك أن يشار إلى أن منتج النص لديه معارف عن كم المعلومات التي يلزم أن يتضمنه نص ما في موقف معين، حتى يمكن للسامع أن يعيد بناء قصد المتكلم، بمعنى أن منتج النص لديه معارف عن متى يكون نص ما مناسباً في موقف ما ومتى لا يكون مناسباً. فالمنتج لن يعلم شريكه عن شيء ما إلا حين يمكن أن يتأكد من أن المعلومة بالنسبة له جديدة ومهمة. ولذلك لا يجب عليه بأية حال من الأحوال أن يتلفظ بالأساس القضوي بأكمله. ولما كان السامع قادراً على إعادة البناء الذهنية فإنه ربما يكون أمراً غير اقتصادي إلى حد كبير إنتاج نص «معلوماتي» أكثر مما يتطلب الموقف المعين ذلك. ومن ناحية أخرى يعرف

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

منتج النص أيضاً أن النص ينبغي أن يتضمن مجالاً من الحقائق معروفاً للسامع من قبل، وأن منتج النص ومتلقيه يمتلكان بذلك عالماً براجماتياً للخطاب (كمبسون 1975 Kempson)، يعد أساساً مشتركاً لكل من منتج النص ومتلقيه، ومن ثم شرطاً ضرورياً للتفاعل والحفاظ على المحادثة. وتعد أيضاً المعارف عن اختيار بدائل إقليمية أو اجتماعية معينة في لغة ما لها علاقة بسياقات الموقف من المعارف حول المعايير الاتصالية الأساسية.

ويشير جازدر (Guzdar 1979) إلى أنه توجد إلى جانب اللغة اليومية المعتادة لدى السكان الاستراليين الأصليين ما يسمى لغة الحموات» التي تستخدم دائماً حين يكون أقارب لهم حرمة معينين (مثل والدي الزوجة وابن أو ابنة الزوج / الزوجة إلخ). وأثبت كومري (Comrie 1976) في بحوثه للغة الجاوية أنه توجد عدة ألفاظ للأرز يتوقف الاختيار منها على قدر التأدب الذي يريد متكلم ما أو يجب أن يعبر به تجاه سامع ما. ويمكن التوسع إن شئنا في قائمة الأمثلة غير أن يكفي لعرضنا أن يشار من خلال

بضع أمثلة إلي معايير الاتصال الأشد اختلافاً في نوعها، التي يتبعها المتكلم في فعله اللغوي.

4-4-2 معرفة ما وراء اتصالية

أشير من قبل مراراً إلى أن المتكلم عن إنتاج نص ما يحاول إلى حد بعيد أن يستكنه شروط فهم السامع بأن يبني في النص وسائل معينة على تقسيمه وتلقيه، ارتباطاً بالهدف المحدد الذي يقصد بنص ما في حالة معينة التوصل إليه، واتصالاً بالأساس القضوي الذي يطره ويصوره في تتابع القضايا في أثناء إنتاج النص.

ويبلغ السامع من خلال تلك الوسائل المعينة عن مسار إنشاء النص المستهدف أو ما سبق تحقيقه. ويحاول المتكلم عن طريق هذه الوسائل المعينة على تقسيمه وتلقيه التي يمكن أن تتناول على أنها مكونات في تخطيط النص أو - كما هي الحال في الاتصال الشفوي الذي يمكن أن يضبط من خلاله بشكل مباشر منتج النص تلقي السامع للنص ومن ثم

يؤثر فيه تأثيراً مباشراً أيضاً - يمكن أن تتلقى بناءً على نتائج الرباط الرجعي في أثناء تحقيق النص. (يحاول المتكلم) أن يتجنب معوقات الاتصال التي يمكن التنبؤ بها أو يتغلب على معارضاات الاتصال التي سبق حدوثها. وبذلك يستطيع منتج النص في تخطيط نص ما أن يتناول أشكال من التكرار أو حتى الاختصار لكي ييسر للسامع بهذه الطريقة فهم النص، غير أنه يمكن أيضاً في الحالات التي يسيء الفهم، التي يفسر فيها السامع النص ليس بالمعنى الذي يقصده المتكلم، أن يجري تصويبات، ويشير بذلك بشكل صريح إلى أنه أراد أن يُفهم على هذا النحو وليس علي نحو آخر. وبالنسبة للحيلولة الوقائية دون معوقات الاتصال -ج وكذلك لتصحيح موانع الاتصال أو التغلب عليها يستطيع منتج النص أن يلوذ بمخزون ثري من المنطوقات اللغوية، يمكنه من خلاله أن يوجه شيئاً أو يفسره أو يوجزه أو يحدده أو يصبوب بها نفسه أو شريكه في الاتصال فتسمى في المراجع الأحداث المنظمة للنص (أنتوس 1982 Antos) وأفعال الكلام المنظمة للخطاب (فوندرليش

Wunderlich (1976) والصياغات (جارفنيكل/ ساكس
Gurfinkel/ Sachs 1976، بليستر/ نوتدورفت
Bilesener - Nothdurft 1978، وأفعال الكلام ما وراء
الاتصالية (ماير - هرمان Mayer - Herrmann
1978)، تشتماير (1984 Techtmeier)، والأحداث
اللغوية المتعلقة بالاتصال (فيهقجر 1983 Wieweger
أ) وأحداث تكوين النص أو أحداث إعادة الصياغة
(جوليش/ كوتشي Gulich/ Kotschi 1987) وطرق
تكوين النص في أثناء الاتصال (راث Rath 1979).
وتتبع هذه الأحداث اللغوية التي يقدم من خلالها
للسامع معينات على فهم النص، وينبغي أن يتوصل
من خلالها إلى الأهداف المساعدة (فيهقجر
Wieweger 1983 أ) أحداث مثل: التفسير والتعديل
والتصحيح والتحديد والإيضاح والتعميم (راث Rath
1975) وإعادة والتصويب والإكمال والاختصار
والتفسير (فوندرليش Wunderlich 1976 أ)
والاستمرار والتأكيد والتكرير والتحسين والتشديد
والإبراز (فايس Weiss 1975)، والإيضاح والإكمال

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

والتخصيص والتصوير والتعليق (دانش Danes 1983).

وعلى الرغم من أن المتكلم - كما يوضح العرض الموجز - يستطيع من خلال هذه الأحداث اللغوية التوصل إلى أهداف غاية في الاختلاف فإن هذه الأحداث برغم الفروق الوظيفية بينها لها خاصية مشتركة: إنها أحداث لغوية يريد منتج النص من خلالها أن يكفل فهم النص ويقيم من خلالها اتصالاً بمجرى الاتصال مباشرة. وبعبارة أخرى: يستطيع كل من المتكلم والسامع أن ينشط معرفة خاصة من أجل إنتاج النص، يسعي من خلالها إلى الحيلولة دون معوقات الاتصال. وتسمى هذه المعرفة ما وراء الاتصالية، وتعد مجال معرفة خاص للمعرفة التفاعلية.

2-4-5 معرفة بأبنية النص الكلية

إن المتكلم الذي ينتج نصاً يتخذ بذلك في الوقت نفسه قراراً يخص البنية الكلية التي يتحقق

فيها نص ما . فمثلاً يستطيع المتكلم أن يحكي إلى شريكه في الاتصال عن حادث مروري وأن يكتب عن ذلك تقريراً إلى التأمين بوصفه شاهداً وأن يعد محضراً عن مجرى الحادث من وجهة نظره . ففي كل حال يحقق الأساس القضوي «حادث مروري» مناسباً للأهداف المختلفة التي يتبعها المتكلم في النص، من خلال أنواع مختلفة من النصوص التي تميز الملامح الفارقة بينها . حين يحكي المتكلم عن حادث، فإنه سيعمل ذلك في صيغة شفوية بوجه خاص، بينما تتحقق كل النصوص الأخرى التي استخدمت هنا، تحقّقاً كتابياً . غير أن الحكي والمحضر وكذلك التقرير يختلف كل منها عن الآخر في مبادئ البناء الخاصة أيضاً، وفي علامات أو «أشكال نصية» كلية نمطية . ويمكن بناء على المثال الذي أوردناه هنا أن يستنتج ابتداءً أنه لا يوجد بين الأساس القضوي (في مثالنا «حادث مروري») والهدف من جهة والبناء الكلي للنص أي ارتباط، إذ يمكن بوضوح أن يتحقق «المضمون» الواحد هو نفسه من خلال أشكال نصية شديدة التباين مرتبطة بهدف المتكلم .

ومع ذلك لا تؤكد التحليلات المفصلة هذا الانطباع الذي يكتسب للوهلة الأولى. إن لدى المتكلم والسامع معرفة خاصة عن البنية الكلية للنص أو معرفة أنواع النص التي تمكنهما من تجديد النصوص بأنها نموذج لقسم أو نوع. وقد اقترح فاندايك (1980 م ب) أن تسمى هذه الخواص البنيوية الكلية للنصوص بأنها «أبنية عليا» أو «أبنية شاملة».

وتتبع هذه المعرفة عن الأبنية النصية الكلية أيضاً معارف خاصة عن «الوحدات الكلية» التي تميز النصوص، وعن تتابعها وعن الصلة بين الهدف والأساس القضوي والبنية الكلية للنص أيضاً. وعلى الرغم من وجود مقترحات كثيرة حول التصنيف اللغوي لأنواع النصوص في الوقت الحاضر واشتمال دراسات علم اللغة النفسي عن استيعاب النص بكثرة في السنوات الأخيرة على هذه الأبنية الكلية (قارن 1-3) فإنه ماتزال معارفنا الحالية عما يسمى «بالأبنية العليا» في بداياتها إلى حد كبير. ولذلك ستكون إجابتنا عن السؤال حول أي المعارف الخاصة التي تتبع المعرفة بأبنية النص الكلية غير وافية ولا مرضية.

وقد اتضح من عدة نتائج إمبيريقية أن كلاً من المتكلم والسامع لديهما معرفة خاصة بأبنية النص الكلية وأنهما يستطيعان كذلك إلحاق النصوص التي ينتجانها ويتلقيانها، كل منها بالنوع النصي الخاص به إذ لا يقدم بالنسبة لنصوص كثيرة على الإطلاق صراحة توصيف لأنواع النصوص. ومع ذلك يستطيع المتلقي عند التلقي الإدراكي لنص ما أن يقرر ما إذا كان المتكلم - يحكي له شيئاً أو يخبره عن شيء أو يُحاجّه إلخ، أي أن المتلقي يستطيع أن يقرر بمساعدة الخواص الكلية للنص بوضوح ما إذا كان النص الذي أنتجه المتكلم نصاً سردياً أو وصيفاً أو جدلياً. ولعل هذه المشكلات يمكن أن توصف من خلال ما يسمى بالنص السردي وصفاً موجزاً. فمن المؤكد أنه يوجد أمر بدهي وهو أن المتكلم يمكنه أن يحكي حادثة ما عدة مرات، دون وجوب مطابقة تتابع الحادثة الفعلي بتتابع ذكرها في النص، بل يستطيع أن يخالف بينهما من عدة نواح. وعلى الرغم من أن المتكلم يستطيع أن يعرض الحادثة بعينها من خلال بدائل حكي متباينة، فلا يختار لها بأية حال العبارات

اللغوية ذاتها، فإن هذه البدائل تشير إلى أوجه اشتراك بنيوية نمطية، وتتسم بوحدة مائزة. ويمكن من خلال الدراسات الكثيرة التي أجريت إلى الآن على نصوص سردية (قارن كفاستهوف Questhoff 1980 أ، ب وجوليش / كفاستهوف Gulich/ Quasthoff 1986) أن يستخلص النتيجة التالية وهي أن نصوص هذا النمط تتسم ببنية حكي مائزة، تكونت من وحدات خاصة.

وإذا ما انطلقنا - كما هي الحال من اقتراحنا عن نموذج لغوي نصي - من أنه لدى المتكلم والسامع معرفة خاصة بأبنية النص الكلية فإنه يمكن أن يفترض ابتداءً أنه لديهما معرفة بموضوعات حكي خاصة. ولا يتبع ذلك بالتأكيد أن الماء يبدأ الغليان عن درجة حرارة 100، وأن فيشتلبرج Fichtelberg أعلى جبل في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، بل الموضوعات التي يمكن أن توصف ابتداءً بشكل رسمي بأنها حوادث يضمنها المتكلم نفسه أشخاصاً معروفين للمتلقى إلخ. ففي أشكال الحكي الحوارية يتعلق الأمر في المقام الأول بأحداث (عن أشخاص) يعدها المتكلم شيقة

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

ومن ثم جديرة بالذكر، حيث يمكن أن تكون أهميتها ناتجة عن انحرافات عن المعيار وباعتبارها مجريات أحداث غير قابلة لأن يتنبأ بها. ولذلك افترض في الدراسات الخاصة بنصوص سردية أن أشكال الحكيم تتكون من وحدة يمكن أن يطلق عليها حادثة تتكون هي بدورها من وحدتين العقدة والحل. وتحصل الحوادث دائماً في إطار موقف معين، أي مكاني وزماني ومؤسسي أيضاً. ومن ثم فإن إطار الموقف يعد وحدة مهمة أخرى في البنية الكلية لنص «الحكي». ونعلم من خلال خبرتنا الاتصالية أنه يمكن أن يبلغ من خلال الحكيم عن حوادث عدة تندمج في واقعة وأن القصة التي وقعت يقومها المتكلم (التقويم) وأن المتكلم يرمي إلى استخلاص «عبرة» من الحادثة المحكية (الأخلاق) (حول بنية نصوص سردية انظر دانس/ فيهقجر Danes/ Viehweger (محرران) 1977، قارن 3-4-3-5).

5-2 تخطيط النص، واستراتيجيات الإنتاج

حللت في 3-2 و 4-2 جوانب معينة من إنتاج

النص تحليلاً مفصلاً، وانطلق في ذلك من أن المتكلم الذي ينتج نصاً يتوسل بمعارف مختلفة، يمكن أن تنتظم فيث ثلاثة أنظمة معرفية هي:

- معرفة لغوية.

- معرفة موضوعية أو موسوعية.

- معرفة تفاعلية، تشمل معرفة إنجازية وكذلك معرفة عن معايير اتصالية ومعرفة ما وراء اتصالية بوصفها معرفة خاصة بضمان الفهم والحيلولة دون معارضات الاتصال (انظر حول ذلك أيضاً 4-4) ومعرفة عن أبنية النص الكلية أو أنواعه. لا يدعي هذا التصنيف الكمال، كما أنه لا يقدم في كل حالة معلومات راسخة عن تنظيم الأنظمة المعرفية المفردة وبنائها من جهة، وكذا عدد تفاعلها في أثناء عملية إنتاج النص من جهة أخرى. ولذلك يجب أن يوضح مرة أخرى أنه يوجد في الوقت الحاضر نظريات متطورة في تباين واضح حول الأنظمة المعرفية المفردة، وأن رؤانا لذلك لتنظيم هذه الأنظمة ومبادئ عملها ما تزال في حد بعيد في مراحل أولية، فنحن لدينا حالياً معارف مؤكدة

نسبياً عن المعرفة اللغوية، وقد مكنتنا دراسات منظمة في السنوات الأخيرة من نظرات أولية أيضاً عن بنية المعرفة التفاعلية ووظيفتها.

أما فيما يختص بتنظيم المعرفة الموسوعية فإن البحث في الوقت الحالي ما يزال غير قادر إلى حد بعيد عن اقتراح حلول مرضية على سبيل التقريب. ولكن على الرغم من أوجه القصور تلك فقد طورت حالياً بعض التصورات الأساسية المهمة التي يمكن أن يستنبط منها من ثم فروض قابلة للاختبار لاستمرار البحث اللغوي النصي. وينبغي فيما يلي توصيف بعض هذه الفروض في صورة قضايا.

من السائغ دون شك أن ينطلق من أن عملية تحديث معارف إنتاج النص ليست عملية متعاقبة بل تضافر متفاعل للأنظمة المعرفية المفردة. ولذلك لا يمكن أن يستنتج من التسلسل الذي توصف من خلاله الأنظمة المعرفية المفردة تتابع في عملية تحديث المعرفة الخاصة بإنتاج النص. ومما تؤكد في تلك الأثناء أيضاً الفرض القائل بأن إنتاج النص بوصفه حلاً مركباً للمهام يتضمن تخطيطاً، أي أن إنتاج النص هو

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

عملية خلاقة يُفَعَّل معها المتكلم المعارف المفردة تفعيلاً استراتيجياً، يستحضر من خلالها ذهنياً الأهداف التي يرمي التوصل إليها من خلال فعله اللغوي. ومن الجلي أن يمكن أن يستخلص من ذلك أيضاً أن التحقيق اللغوي الفعلي لنص ما يعد اختياراً للمنطوقات المناسبة في مرحلة متأخرة نسبياً من هذه العملية بينما يقع في المرحلة الأولى من إنتاج النص تخطيط للحدث الكلي والأساسي القضوي الموافق لهذا الحدث أيضاً.

إن أنظمة المعرفة المفردة التي يتوسل بها المتكلم لإنتاج النص ليست ببساطة معرفة ثابتة، وليست مجرد وسائل معرفية مساعدة، يرجع إليها المتكلم بما يتناسب وأهدافه. بل إنه في اقتراح النموذج المقدم هنا ينطلق من أنه يتبع كل نسق من هذه الأنساق المعرفية معرفة خاصة عن التعامل مع هذه المعارف أيضاً، وأنه بذلك يتبع كل نسق من هذه الأنساق المعرفية معرفة إجرائية. إن الإجراءات التي تنشط هذه الأنظمة المعرفية وفقاً لها يمكن أن تفهم على أنها أمور روتينية أو يبدو مبرراً من جهة أخرى أن ينطلق من أنه

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

ثمة إجراءات مخصصة تستخدم في إطار شروط خاصة للأحداث (قارن فينوجراد 1972 Winograd ومينسكي 1975 Minsky، 1979).

وقد أشير بهذا الجانب الإجرائي إلى خاصية منهجية مهمة لنموذج تحليل النص الممثل هنا. وينطلق مثل ذلك النموذج من أن المتكلم في سياق التفاعل ينشط تلك الأجزاء من معرفته المكتسبة والمختزنة في الذاكرة بما يناسب هدفه من الحدث، وهي الأجزاء التي يعدها ضرورة لإنتاج النص بناء على التقويم الإدراكي لسياق الحدث وكذلك المشاركين فيه. إن عملية تفعيل المعرفة لا تفهم في إطار ذلك على أنها مجرد «استدعاء» لمعارف متباينة من الذاكرة، بل هي عملية تتضمن عمليات تفكير بشكل نسقي. ولما كانت عمليات إنتاج النص لم تدرس إلى الآن دراسة محدودة نسبياً (قارن فودر، بيقر/ جاريت 1974 Foder, Bever, Garret، وجولدمان Goldman 1975، وكنتش 1982 Kintsch، ولوريا 1982 Lurija، ودي بوجراند 1984 De Beaugrande) فإن المكونات داخل عمليات إنتاج النص لا يمكن حصرها إلا

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

بصعوبة بالغة. وبذلك لا يمكن في الوقت الحاضر أن يقال بشكل يقيني، ما التسلسل الذي ينشط من خلاله الأنظمة المعرفية المفردة، وما أشكال التمثيل التي تنتج عن ذلك، وما العمليات التي تشترط أخرى وما العمليات التي تسود في المقابل. إن تأثيرات الموقف على إنتاج النص متعددة، لدرجة أنه لا يجوز أن ننظر إلى إنتاج النص على أنه أمر منته، بل هو مفتوح باستمرار. ولا تتعارض هذه الفكرة من جانب التخطيط الخاص بإنتاج النص، الذي سبق وصفه.

ولما كانت تنشأ من خلال إنتاج النص سياقات تفاعل جديدة أيضاً ولما كان المتكلمون يؤثرون بنصوصهم في معرفة المشاركين لهم في الاتصال ومواقفهم وحوافزهم وأوجه تقويمهم ويغيرونها، فإن إنتاج النص لا يوصف ولا يوضح إلا بوصفه عملية دينامية وبنائية وتكتمل تدريجياً، ويبرز من خلال ذلك الجانب التعاوني للشريك. ويمكن أن تعرض بشكل موجز مرة أخرى الجوانب المدروسة إلى الآن لإنتاج النص من خلال التخطيط التالي:

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

(شكل 11)

يصور من الأصل

النص

بوصفه بنية متعددة الأبعاد، تتجلى فيها الأنظمة المعرفية المفردة

6-2 تفسير النص

بعد أن وصفت عمليات إنتاج النص في 2-4، ووضحت بالتفصيل الأنظمة المعرفية المحققة لها، ينبغي فيما يلي أن يخطط على هيئة نموذج كيف يفهم المفسر النصوص. ويتعلق الأمر هنا أيضاً بعمليات جد مألوفة، تجرى على ما يبدو بشكل آلي ولا يعيها المشاركون في الاتصال بوضوح إلا إذا لم تفهم النصوص أو لم تفهم على الوجه المراد. وخلافاً لعمليات إنتاج النص تقع عمليات التفسير منذ أمد طويل في لب الاهتمام اللغوي والنفسي. وقد أضيفت في السنوات الأخيرة خاصة باستمرار دراسات جديدة إلى نظرية فهم النص، وإلى المسائل المنهجية أيضاً. وقبل أن نتوجه إلى مشاكل تفسير النص ينبغي وصف موقفين منهجيين وصفاً أكثر تفصيلاً:

(i) فهم النص (تفسير النص، تلقي النص، ليس صورة معكوسة، ليس مجرد قلب لإنتاج النص - فهم النص - على الرغم من أنه تنشط فيه أساساً تلك الأنظمة المعرفية التي وصفت بالتفصيل في سياق إنتاج النص - ليس مجرد نقل للمعلومات

اللغوية في تمثيل إدراكي. إن التفسير والفهم نشاطان مركبان بدائيان، يتجاوز المتلقي فيهما استيعاب معلومات المعنى، حيث «يملاً» في العادة بنية غامضة للمعلومات في نص ما بمعرفة مسبقة أو معارف، مختزنة في الذاكرة من قبل أو اكتسبت أو أفرزت من خلال التقويم الإدراكي الذي يسبق فهم النص.

(ii) ويكون فهم النص بذلك حكماً فيما يخص التفسير أولاً قائماً على إمكانية الرجوع عنه، إنه تفسير ثابت مؤقتاً، تتداخل فيه خطوات التفسير الخاصة والكلية، التي تغير نتائج التفسير بلا ريب، وحتى يمكن أن تصححها. يعد فهم النص أساساً عملية مصاحبة للنص أو للمعلومات، وكذلك مصاحبة المعرفة، هو عملية تتحد فيها المعلومات التي ينقلها النص بمعارف ترجع إلى المعرفة المسبقة للمفسر.

وتسمى طريقتا التفسير اللتان وصفناهما بعملية الفهم المصاحبة للنص والمصاحبة للمعرفة، في المراجع غالباً، استراتيجية الصعود والهبوط والهبوط والصعود في فهم النص. ولذلك سيؤكد في مقترحات النماذج على أن استراتيجيتي الاستيعاب لا تجري

بشكل متعاقب بل إنهما يتداخلان ويكمل كل منهما الآخر.

1-6-2 عملية إدراك المشاركين في الحدث

لا يحدث فهم النص - مثل إنتاج النص أيضاً - دون شرط مطلقاً، فالمتلقي الذي يفسر نصاً ما، يبني ابتداءً نموذج موقف الحدث والمشاركين فيه، فهو «يشكل لنفسه صورة عن الآخر». وتحدد نتيجة هذا التقويم الإدراكي لموقف الحدث والمشاركين فيه الذي يسبق كل تفسير لنص، وعمليات الفهم تحديداً كبيراً للغاية. ويمكن أن ينطلق أيضاً بناء على معارف نفسية من أن فهم النص يقوم بشكل جوهري على ميزة مؤطرة لما يمكن توقعه. ولذا فإن مفسر النص سيختبر ابتداءً ما العلاقات الاجتماعية والعاطفية الناشئة مع منتج النص، وإذا ما كان النص الذي يفسره ينتظم في حكاية اتصالية، ينتج عنها أن المفسر قد شارك المنتج من قبل في حل مهام اتصال مشتركة. وسوف يختبر كذلك في أي سياقات مؤسسية ينتظم نص ما، وسوف يأتي عند تفسير

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

نصوص مصاغة فنية والنصوص العلمية بتوقعات معينة عن المؤلف. ويمكن أن تطول قائمة المعايير الممكنة التي تؤثر في فهم النص. يمكن أن يقر بوجه عام أنه توجد معايير اتصالية وإدراكية وموقفية واجتماعية أيضاً، تحدد فهم النص وتحدد إمكانات تفسير نص ما. وبذلك يكون فهم النص معتمداً دائماً على قيود الاستيعاب، ومهامه أيضاً التي يجب أن تؤدي في موقف معين. وقد تطورت في علم النفس الإدراكي وعلم نفس معالجة النص في السنوات الأخيرة مقترحات كثيرة لنماذج، أمكن من خلالها وضع عمليات فهم النص في نماذج عامة. أو وصف جوانب مفردة من هذه العمليات بالتفصيل ثم توضيحها. ويذكر هنا على وجه التمثيل من كم الطرائق البحثية الموجودة حول فهم النص الطرائق التالية (قارن بوجه خاص 1-2-6-2):

(أ) نظرية أجرومية القصة - grammer Story (ماندلر / جونسون Mandler/ Jlhson 1977، وروملهارت Rumelhart 1977، وثورندايك Thorndyke 1977)، التي تنطلق من الفرض القائل بأن

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

القصص يمكن أن تعالج بمساعدة مخطط بنيوي حديث ومن ثم يحاول ممثلو هذا الاتجاه أن يبنوا آلية قاعدية، تكون بنية الحدث في حكاية ما، وتسهم في أثناء عملية فهم النص في إدراك الحكاية على أنها نموذج من إطار تنظيم معروف من قبل. وعلى الرغم من أن نظرية أجرومية القصة قد عززتها سلسلة من الدراسات النفسية فإنها حالياً قد توارت إلى حد بعيد أو اندمجت في سياقات نظرية أشمل (فان دايك / كنييتش (1973 Van Dijk/ Kintsch).

(ب) نظرية أوجه تحليل المشكلة في النص (بلاك (1978 Black) التي تعد في الواقع بديلاً لأجرومية القصة. وقد ترد هذه النظرية إلى محور الاهتمام في إجراءاتها تلك الجوانب بوجه خاص بأن يضع المفسر نموذجاً لتفسير القصة باعتباره إنجازاً متدرجاً لخطوات المشكلة، حيث تنشأ سلميات مركبة من أحداث حل المشكلة ذات درجات متباينة من التعميم.

(ج) نظرية النماذج الذهنية (جونسون - لايرد John-

Laird - son (1980، و1983) التي تؤسس جيلاً جديداً من نظريات معالجة النص. وخلافاً لكلتا النظريتين المذكورتين أولاً لم يعد يكمن هدف النظرية الذهنية في وضع نموذج تتابع الأحداث المفردة أو بنية حل المشكلة، بل في وضع نموذج لعالم النص كلية. ينطلق هذا النموذج لفهم النص من أن فهم النص في الحقيقة يقوم على موضوعات ممثلة في النص بوضوح، ومع ذلك فإنه يضم في معرفة مستقلة عن النص إلى حد بعيد للغاية، أنشئ من خلال ذلك على مستوى أشكال التمثيل القضوي ما يسمى بمستوى عالم النص في النماذج الذهنية، الذي يشمل حسب جونسون - لا يرد معرفة العالم وكذلك المعرفة الاتصالية (قارن 1-2-6-2).

(د) نظرية فك المشكلة (كلارك Clark 1977)، تحاول وضع نموذج لفهم اللغة بوصفه نمطاً خاصاً من حل المشكلة، يحل من خلاله السامع مشكلة الفهم على أساس النص المبلغ، والسياق اللغوي وغير اللغوي، وكذلك على أساس معايير الاتصال.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

ولما كانت النصوص متضمنة دائماً في مواقف ومرتبطة بأعراف، وترتكز في العادة على خلفية معرفية للمشاركين في الحدث فإنه من الممكن ألا يعبر في النص إلا عن جزء صغير نسبياً من الرسالة (كلارك)، وفي أثناء عملية فهم النص تملأ هذه المعلومة بمعرفة عن العالم، أي أن المفسر يستدل على المعرفة التي لم يعبر عنها صراحة في النص، فيبني من خلال ذلك جسوراً بين المنطوقات المفردة، وينشئ بهذه الطريقة علاقات بين الأشياء.

(هـ) نظرية الاستراتيجية (كنيتش / فان دايك Kin- Van Dijk/ 1978 tisch/ فان دايك / كنييتش Van Dijk/ Kintisch 1983). ونظراً لأن هذه النظرية سنعرض لها بالتفصيل في 2-6-2 فإنه يمكن هنا عدم إتمام وصف لأفكارها الأساسية (محاورها) (قارن 2-6-2).

إن كل منطلق من المنطلقات النظرية المذكورة هنا يحاول من وجهات نظر مختلفة أن يصف جوانب معينة في فهم النص، بحيث يمكن الإشارة إلى أنه

لا توجد حالياً أية نظرية شاملة موحدة لفهم النص تنقل هذه العمليات المعقدة في تنوعها. وعلى الرغم من الفروق المنهجية والنظرية التي تبرزها المقترحات المقدمة للنماذج فإنه يمكن مع ذلك الانطلاق من أن فهم النص يعد نشاطاً بنائياً، مستمراً وليس مجرد حل شفرة ما قيل أو إعادة بناء المعنى أو نقلاً بسيطاً لمعلومات النص إلى تمثيل ذهني. إن فهم النص هو دائماً انعكاس بارز لموقف المفسر على سياق القول والمعنى والموقف. وتشير كل الطرائق البحثية المقدمة إلى الآن تقريباً إلى أن النصوص تعالج بشكل دوري في أثناء عملية الفهم وأن فهم النص يقسم إلى مكونات تتداخل فيما بينها وظيفياً وأن في أثناء عملية فهم النص تتم تلك العمليات وتخصص تلك المعارف التي تعد نتائج عمليات إدراكية للمنتج في بنية للنص متعددة الأبعاد.

يحدث هذا دائماً بتنشيط مكونات المعرفة الموجودة من قبل لدى المتلقي. وحتى لا تظل مناقشة فهم النص طويلاً على مستوى مجرد محض يمكن فيما يلي في ضوء أحد المقترحات المذكورة فيما سلف

عن النماذج أن يخطط بإيجاز، كيف يمكن أن يوضح فهم النص على شكل نموذج من خلال دمج الفروض النظرية والنتائج الإمبريقية. ولما كان كثير من النظرات المكتسبة إلى الآن ماتزال أولية، ومن ثم لها طبيعة الفرضيات فإنه يبقى أن يشار إلي أن المقولات المصاغة هنا حول فهم النص لا تزعم أي حقيقة نفسية. نحن نختار لذلك نظرية الاستراتيجية، لأنها بالمقارنة بغيرها قد أعدت إعداداً جيداً نسبياً، وبناء عليه تضم من الناحية النظرية أكبر مجالات إمبريقية للحقائق أيضاً.

2-6-2 استراتيجيات تلقي النص

ينطلق نموذج المعالجة الاستراتيجية للنص الذي طوره فان دايك وكينتس خاصة من الفرض القائل بأن فهم النص لا يمكن أن يوصف وصفاً ملائماً ولا يوضح من خلال نماذج قائمة على المستويات البنيوية التقليدية، بل من خلال نماذج قائمة على التراكم. هذا النموذج يعد نموذجاً محض وظيفياً، إجرائياً، يظهر

أوجه اتفاق كثيرة مع نظرية النشاط في علم نفس تاريخ الثقافة لدى فيجوتسكي Vygotskij وليونتييف Leont'ev (قارن أ. أ ليونتييف 1984 أ). إن مفهوم الاستراتيجية الذي يعرف على أساس نظرية الحدث يرتقي لدى فان دايك/ كينتس (1983) إلى التصور المحوري للتفسير في عملية فهم النص. فقد تبنى فان دايك/ كينتس استناداً إلي بيفر Bever (1970) وكلارك/ كلارك Clurk/ Clark 1977 وآخرين إلى الرأي القائل إنه عند فهم النص تستخدم المعارف على نحو استراتيجي (وهو) مما تدعمه الفروض الأساسية التالية:

(أ) « يبني مفسر النص تمثيلاً ذهنياً للأحوال التي جعلها المنتج غير مباشرة في النص، أي أن مفسر النص يدخل بتطبيقه استراتيجيات متباينة النظام إلى المعلومات المأخوذة من النص، ويملؤها بمعرفة قائمة من قبل.

(ب) يفهم مفسر النص الأحوال دائماً على أنها أحوال نمط معين، وبعبارة أخرى: يرتبط قيام النظام

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

دائماً بأقسام من الأحوال ومواقف الاتصال
والتفاعلات والأنشطة المتفاعلة.

(ج) عند بناء التمثيل الذهني لنص ما لا ينتظر
المفسر إلى نهاية النص، بل إنه يبدأ به مع
الكلمة الأولى لبنية المنطوق، ويعدل تدريجياً
نتيجة التفسير الناشئة آنذاك.

(د) عند بناء التمثيل الذهني للنص ينطلق مفسر
النص من مواقفه وقيمه واقتناعاته وآرائه، إنه
يجري بذلك تقويمات، ترد الأهمية إلى النظام.

(هـ) عند بناء التمثيل الذهني لنص ما يراعي مفسر
النص وظيفية النص في السياق الاجتماعي.

(و) يراعي مفسر النص كذلك الوظيفة الإنجازية
للنص، أي أنه يعيد بناء قصد المتكلم نسبة إلى
سياق الموقف وسياق التفاعل.

(ز) يراعي مفسر النص إدخال النص في تفاعلات
اجتماعية مع أهدافها وحوافزها ومعاييرها.

(ح) من أجل تفسير نص ما تسخر لبناء معنى النص
من قبل المتلقي نظريات وفرضيات وكذلك

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

نظريات ذاتية، جمعها على أساس خبرات فردية
في أثناء تعامله اليومي مع المحيط الطبيعي
والاجتماعي.

وهكذا فقد حدد مفهوم تفسير النص المذكور
بشكل عام ابتداءً فيما سلف تحديداً دقيقاً للغاية، من
خلال الفروض الواردة من (أ) إلى (ح) عن المعالجة
الاستراتيجية للنص.

ينطلق فاندايك وكينتس عند وضع نموذج فهم
النص من متعدد المستويات تحدث فيه المعالجة
متوازية على كل المستويات وتتداخل فيه عمليات
المعالجة في المستوى الخاص والكلي. وينظر إلى عملية
المعالجة في مستوى ما في الواقع على أنها مستقلة
عن عمليات المعالجة في مستويات أخرى، ومع ذلك
يفترض - كما وضع من قبل - قدر عالٍ من التفاعل
والتبعية الداخلية بين المستويات المفردة.

إن هذا النموذج يقدم بالتفصيل على المستويات
التالية:

(i) مستوى القضايا النووية بوصفها وحدات
أساسية دلالية.

- (ii) مستوى القضايا المركبة.
- (iii) مستوى التماسك الداخلي (الخاص).
- (iv) مستوى البنية الكبرى.
- (v) مستوى البنية العليا، أي الشكل العرفي لنوع معين من النص.

ولما كانت مستويات معالجة النص التي افترضها فان دايك وكينتس وكذلك الوحدات المثلثة المفترضة لها ماتزال لم تترسخ بعد على كل حال من الناحية النظرية والتصورية، فإنه ينبغي فيما يلي أن تعتمد على تلك المراحل من المعالجة والوحدات بوجه خاص، التي تتوفر لنا عنها في الوقت الحاضر معارف مؤكدة نسبياً. وعند مناقشة مثل هذه المسائل سوف تستدعي معارف كثيرة أيضاً، توصل إليها في سياقات نظريات أخرى، ومن ثم ملتزمة بطرائق بحثية أخرى.

إن السؤال الذي يعد وحدة محورية بنيت عليها البنية الدلالية الكلية للنص ماتزال الإجابة عنه إلى الآن متباينة. فقد اقترح كينتس (1974) أن معاني

النص تتشكل من خلال القضايا. أما روملهارت (1977) فقد افترض خلافاً لذلك أن المخططات هي الوحدات المحورية في تشكيل النص، بينما عد شانك/ ابلسون Schank/ Abelson (1977) المدارات هي تلك الوحدات (قارن 1-2-6-2).

ويتضح من التحليل النقدي للمقترحات الموجودة للنماذج حول فهم النص أنه من الصعوبة بمكان أن تفترض وحدة دلالية محورية، يمكن أن تستنبط منها كل الوحدات الأخرى. ولهذا السبب فيما يبدو يفترض عدة وحدات لتشكيل النص، ومن هذا الفرض تنطلق أيضاً الاستراتيجية التي تستخدم القضية في أدنى مستوى دلالي للتمثيل.

ويفهم ضمن القضايا أبنية تصويرية تنقل الأحوال الأولية - وتوصف القضايا في النظرية الدلالية على أنها أبنية محمول - متغير أو دال - متغير، ويعزا فيها المحمول الدلالي أو الدال خاصية معينة إلى فرد أو مجموعة ثابتة من الأفراد أو يقيم علاقة بين فردين، بعضهما ببعض - وهكذا ففي قضية تلميذ (س) يعزو الدال «تلميذ» خاصية

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

«التلمذة» إلى مجموعة ثابتة من الأفراد، وفي المقابل يقيم الدال «تقرأ» في قضية يقرأ .أب، كتاباً) علاقة بين كلا المتغيرين أب وكتاب. وينطلق في علم نفس معالجة النص من أنه عدد فهم النص تجزأ دلالات النص إلى تلك القضايا الأساسية، التي يتشكل من خلالها أساس النص «عالم النص» (بتوفي Petofi 1978). ففي المثال:

(26) لقد أمطرت. الشارع مبلل.

يمكن لمفسر النص أن يربط بين المنطوقين، اللذين تمثل كل قضية منهما الأحوال الأولية لأن لديه معارف عن الصلة بين الوضعين، حيث يمكن أن تنشأ بين كلا الوضعين علاقة ربط أساسية. إن هذا ممكن، لأن مفسر النص يستطيع تنظيم تتابع القضيتين في مخطط قضوي وربطهما بروابط مثل نتيجة لذلك أو لأن. يوضح هذا المثال بجلاء أن تعبيرات الربط الغائية في (26) التي يمكن أن تعبر عنها بوضوح علاقة العلة - النتيجة يمكن أن تعوض من المفسر على أساس معرفته بالأحوال والعلاقات الممكنة بينها (قارن فريتشه Fritsche (محور) 1982، ميتسلتين/ ياكشه

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

1975 Meyer وماير 1983 Metzeltin/ Jaksche
و(1983).

وبعبارة أخرى: يمكن أن يعزو مفسر النص بناءً على معرفته بعلاقة الربط الأساسية بين الأحوال التي تعكسها القضايا، خاصية «متماسك» إلى تتابع المنطوقات. وبذلك يكون قد عبر عن أن التماسك (قارن بتفصيل أكثر من 2-7) لا يفهم كما في الحال في طرائق البحث في نحو النص على أنه خاصية باطنية للنصوص، بل هو محمول تقويمي يمكن من خلاله نتيجة لتفسير النص أن تعزا إلى تتابع المنطوقات خاصية أنه متماسك أو غير متماسك (قارن شارول Charolles، وبتوفي سوتسر Petöfi/ Sözer (محرران 1983، وفريتس Fritz 1982، وهايديرش/ بتوفي Heydrich/ Petöfi (محرران 1986، ولوندكفيست Lundquist ونوبباور Neubauer (محرر) 1983 وبتوفي Petöti (محرر) 1986 وبتوفي/ سوتسر (محرران) 1983، وسوتسر (محرر) 1985.

ما الروابط الممكنة بين القضايا التي يمكن أن تنشأ بمعاونة محصلات لغوية، أي جسور التماسك،

أو المؤشرات أو كذلك على أساس المعرفة التي يمتلكها مفسر النص عن المحيط الاجتماعي والطبيعي، وما العلاقة التي يمكن أن تقام بين قضيتين، يعتمد اعتماداً جوهرياً إلى حد بعيد على مدى المعارف التي اكتسبها مفسر النص في تعامله النشط مع الواقع أو مدى ما يتوفر له من معرفة متعلمة، ومدى ما اكتسبه من خبرات شخصية. إنها حقيقة معروفة أنه طبقاً لمعايير الاتصالية العامة الموضوعية في 2-3-4-3 لا يضم النص إلا تلك المعرفة التي يفترض المنتج عنها أنها كافية لفهم النص. وربما كان إيضاح كل المعارف في نص ما غير اقتصادي إلى حد كبير، ويخالف هذه المعايير، وكذلك الحقيقة القائلة إن المتلقي قادر على أشكال إعادة بناء ذهنية. وحين يعالج مفسر النص مثلاً تتابع المنطوقات التالي:

(27) صدمت امرأة بسيارتها شجرة. كانت قد عضتها قطنها. ويحاول أن ينشئ علاقة بين القضايا فإن ذلك بالتأكيد في هذه الحال ليس أمراً واضحاً ولا جلياً، كما هي الحال في (26)، حيث يصل إلى علاقة سببية بناءً على نتيجة العملية الإدراكية: يدرك المرء

أن بلل الشارع (يكون) مع المطر، حتى لو كان ثمة سبب آخر ممكناً لبلل الشارع في هذا المثال أيضاً. فثمة معرفة أخرى ضرورية لم يعبر عنها في النص لإنشاء صلة بين القضايا في (27). وكثيراً ما يوفر سياق الحدث هذه المعرفة (قارن دورف مولز - كاربوسا/ بتوفي (محرران) Dofmuller/ Karpusa/ Petöfi (1981م)). وفي حالات كثيرة يمكن أيضاً أن تعوض عمليات إدراكية المعرفة الغائبة، أي تملأ من المعرفة الثابتة، من مصادر المعرفة المخزنة في الذاكرة، مثلاً من خلال نظريات وتمثيلات معرفية تمتلكها عن الأحوال المركبة ومجريات الأحداث وما شابه. ففي (27) يوضح باقي النص العلاقة التي تعد شرطاً لانتظام القضيتين في مخطط قضوي واحد. ففي هذا النص الذي نستغني عن إعادة عرضه هنا لأسباب تتعلق (بضيق) المساحة، يمكن القول إن المرأة المتعرضة للحدث كانت تصطحب قطتها معها دائماً في السيارة، وأن القطة كانت قد فزعت من شيء ما، وأنها عضت السائقة التي فقدت نتيجة لذلك السيطرة علي المركبة واصطدمت بالشجرة.

مثال (27) المستقي من خبر صحفي يبين من جهة أن فهم النص يتأثر بالسياق تأثيراً كبيراً، ومن جهة أخرى أن المعرفة بالسياقات والتفاعلات وغيرها تعزا إليها وظيفة بنيوية مهمة للغاية في فهم النص. وينتج عن ذلك حتماً أن المتلقين المختلفين يمكنهم أن يوفقوا في عملية فهم النص إلى نتائج تفسيرية مبتغاة بطرق مختلفة ومن خلال عمليات بنائية ذات مسارات مختلفة، إذ لا يمكن أن يكون لدى كل المتلقين مصادر معرفية متماثلة، يملأون من خلالها بناء النص أي المعلومات النصية في أثناء عملية الفهم (قارن: فان دي فيلده 1986 Van fr Velde م، ريكهايم / شترونر Rickheim/ Strihner 1985 م ب).

إن الاستنتاجات، أي أوجه الإكمال المعرفي، على نحو ما صارت ضرورية في (26) و(27) في أثناء عملية فهم النص، لا تتم في مسارات صارمة من الاستدلالات القياسية وفق المنطق الشكلي، كما أن هذه الإجراءات الاستنتاجية لا تقوم أيضاً على أسباب وشروط مؤثرة تأثيراً فعلياً دائماً. إن عمليات ختامية من هذا النوع ترتكن في الأكثر على

الكيفيات التي ينظر إليها على أنها مهمة في سياق تفاعل معين، وعلى الأولويات وأوجه التقويم وآراء المفسر... إلخ.

إنه من المؤكد أن دمج قضيتين في مخطط قضوي واحد يحكمه في كثير من الأحوال مخطط سببي، ومع ذلك لا يمكن بأية حال أن يقتصر الدمج القضوي على هذه العلاقة فقد صار واضحاً من خلال (26)، و(27) أنه يمكن أن ينقل المخطط السببي ظواهر غاية في الاختلاف، يمكن أن تظهر على أنها علة، ويدور الأمر من ناحية حول أسباب مؤثرة موضوعياً، لها طبيعية فيزيائية، وكيميائية وبيولوجية إلخ، كما هي الحال مثلاً في:

(28) في هذا الصيف أمطرت عدة أسابيع. فاضت الأنهار على ضفافها.

(29) في هذا الصيف أمطرت عدة أسابيع. لم يكن جني الغلال ممكناً.

(30) في أكتوبر تكون صقيع. تجمدت عناقيد العنب.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

بيد أنه من جهة أخرى تُدرج تحت المخططات السببية في المراجع تلك الحالات أيضاً، التي تعبر فيها قضية ق ا عن علة إتمام الحدث أو عدم إتمامه، التي تعكسها قضية ق ب:

(31) لم يستطع بيتر أن يشاهد الفيلم. فإطار سيارته الفولفو قد عطب.

ولكنه يمكن أيضاً أن تنتظم قضيتان في مخطط قضوي واحد، تعكس إحدى القضيتين حالة مركبة، بينما تخصص الأخرى أو الجزء الآخر هذه الحالة. وتقوم علاقة التخصيص هذه - وفي الحالة المعكوسة علاقة تعميم - على علاقات الجزء بالكل بين الحالات أو مكونات الحالات، وعلى علاقات الربط الأساسي بينها أيضاً.

(32) اجتمع أمس البرلمان. تشاور النواب حول ثلاث مسودات قوانين جديدة.

أخيراً يمكن أن تدمج القضايا في مخطط قضوي واحد. حين تعكس مكونات بنية الحادثة أو حتى

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

الأحداث التي نفذت متعاقبة (قارن أيضاً انكفيست
1978 Enkvist).

(33) يأتي بيتر من المدرسة دائماً حوالي
الساعة الثانية. ينجز أولاً واجباته. بعد ذلك يذهب
ليتضبع.

ينبغي أن تكون المخططات القضائية المدروسة
إلى الآن قد أوضحت المبادئ التي تدمج القضايا وفقاً
لها، أي تدرج معاً في سياق واحد. إن علاقة الربط
الأساسي بين الحالات التي تعكسها القضايا، ضرورة
هنا، ومع ذلك فإنها ما تزال ليست شرطاً كافياً، كما
يتضح من المثال (34):

(34) فنلندا أغنى بلدان أوروبا بالبحيرات.
قاعة فنلندا صممها ١. ألتو A. Aalto في شمال
فنلندا تعيش حيوانات الرنة. وفي الجنوب الوعول.
كسب نيكينن Nykkannen ثلاث ميداليات ذهبية.

يمكن بغير شك إثبات علاقات ربط أساسية بين
القضايا في (34). ومع ذلك يصعب حصر المعرفة
المتمثلة هنا تحت مدمج واضح، ففهم النص وعمليات

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الدمج القضوي تعتمد بشكل واضح دائماً على أفكار موجهة، وتيمات، وأفكار محورية وسياقات التفاعل وغير ذلك التي تصير قوة تشكيل مركزية للبنية.

3-6-2 الدمج القضوي الأفقي والرأسي

إن عمليات فهم النص المعالجة إلى الآن التي تجزئ محتويات النص إلى قضايا أساسية وتقيم بين هذه القضايا علاقات حتى تضم في مركبات قضوية، تحدها تحديداً حاسماً المعرفة التي يمتلك مفسر النص عن المحيط الطبيعي والاجتماعي. ولهذا يشترط لدمج القضوي دائماً معرفة عن الحالات وتربطها، بل وعن المعرفة المسبقة أو معرفة السياق حول علاقات التفاعل، ووقائع الاتصال وما أشبه ذلك. وأخيراً فإن عمليات الدمج القضوي بالمعنى المتحدث عنه فيما سبق لا تتصور دون معرفة موسوعية ودون النظريات العلمية، وكذلك النظريات الذاتية أو المعرفة بتربط الأحداث. فهي تقدم المعرفة الضرورية لإنجاز الاستدلالات المناسبة لتفسير النص وبذلك يكون المرء الذي يملك المعرفة الموضوعية المناسبة عن أوبرفيننتال

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

وربما الشقاء قادراً على القيام بدمج القضايا بلا إشكال في:

(25) نشأت ريناته في أوبرفيزنتال، فهي متزوجة ممتازة.

ويستخلص تلك المعرفة، أي يستطيع تعويض ما لم يذكر في النص صراحة. إن كل آليات الدمج المعالجة إلى الآن التي توجهها مخططات قضوية والتي تستند إلى أقسام الحالات والعلاقات المميزة لها يمكن على أساس «اتجاه المعالجة» الدمج القضوي الأفقي. فعلى المستوى الموضوعي يؤسس ها هنا بين القضايا مخطط قضوي يعتمد على الحالات وهيئات الحالات وكذلك علاقات الترابط الأساس بينها. وغالباً ما تظهر آثار عمليات الدمج هذه في البنية السطحية للنص على شكل وسائل تماسك، ومع ذلك فإنها ليست شروطاً حتمية لعمليات الدمج التي تجري عبر القضايا في أثناء عملية فهم النص.

بيد أنه يوجد كثير من تتابعات المنطوقات التي يجب أن يوجد لها من أجل الدمج القضوي مدمج مشترك أي درجة مشتركة من التنظيم (قارن لانج

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

Lang (1983) ففي عمليات الدمج هذه التي تسير في هذه الحال على نحو رأسي، والتي تقوم إلى حد كبير للغاية على إمكانية المراجعة، يجب أن يوجد أولاً تصور ما يمكن أن تدرج تحته القضايا المفردة. وتعد هذه الطريقة من طرق الدمج القضوي مميزة بوجه خاص في معالجة تلك النصوص أو مقاطع نصية، تدخل فيها مشاهد حديثة، كما هي الحال في روايات، وحكايات كثيرة... إلخ.

تربط آليات الدمج الأفقية والرأسية بين القضايا الأساسية في مركبات قضوية أو قضايا كبرى أو وحدات كبرى، حيث تتضافر نتائج عمليات الموضوعية والكلية مع مستويات المعالجة. حاول فان دايك (1980 أ، ج) أن يبين إلى أي مدى يمكن إيضاح هذه الأسس في البناء الدلالي للوحدات بشكل منظم، أي ما القواعد الكبرى التي تشكل أبنية دلالية كبرى.

2-6-4 مخططات الإنجاز والاستراتيجيات البراجماتية

كانت إجراءات المعالجة الدلالية للنص تقع إلى

الآن في قلب نماذج علم اللغة النفسي عن معالجة النص حتى إذا قررنا عن كل اقتراحات النماذج أن فهم النص لا يمكن أن يحصل في تشكيل معنى النص، في بناء أساس النص أو عالمه، بل يشمل بشكل حتمي تفسير وظيفة النص أو إنجازه. إن هذا الأمر لا يتطرق إليه الشك، ولكن الآليات التي توصف وتوضح من خلالها عمليات الدمج الإنجازية في أثناء فهم النص لم تبحث في الوقت الحاضر إلا بشكل محدود للغاية كما هي الحال بالنسبة لآليات البناء الدلالي للوحدات. ولذلك يبدو أنه من السائع الانطلاق من أنه استناداً إلي تفسير وظيفة النص ستطبق بلا شك إجراءات قياسية، أي أن النصوص عند تلقيها تجزأ إلى أحداث لغوية أساسية وأحداث إنجازية يقام بينها علاقات خاصة لكي يبني من ذلك مركبات أو تدرجات الإنجاز.

إن أوجه الإنجاز التي تدمج في أثناء عملية فهم النص في مخطط الإنجاز، يجب كذلك أن تفي بشروط معينة. ولذا يمكن الانطلاق من أن مخططات الإنجاز تتكون من أحداث إنجازية يتوصل من خلالها إلى

هدف جوهري، وكذلك تلك الأحداث التي ينبغي أن تحقق أهدافاً وسيلية بالنظر إلى الهدف الجوهري، حيث يمكن هنا افتراض علاقات دعم مميزة بين تلك الأحداث الإنجازية التي يتوصل من خلالها إلى الهدف الجوهري، وتلك التي توجد شروط هذا الهدف. لذلك لا يلزم بأية حال من الأحوال أن تكون الأحداث الإنجازية صريحة دائماً، بل إنه يمكن أن تستنبط أيضاً. فأحد أهم شروط إعادة بناء علاقات إنجازية يكمن فيما يبدو في تنظيمها المعرفي في شكل نموذج أو مخطط.

ربما اتضح عن طريق التمثيل في 2-3 و 2-5 كيف يتوسل بالمعرفة استراتيجياً لعمليات إنتاج النص وكذلك تفسيره. وما الإجراءات التي تتحقق من خلالها هذه المعرفة في أبنية النص. وربما أوضحت معالجاتنا أن كلتا العمليتين تعدان من الأنشطة الخلاقة التي يجب أن تفهم على أنها عمليات تجرى بشكل دينامي، فالتحليل اللغوي للنصوص لا يستطيع وصف ولا إيضاح العمليات التي تجرى فعلاً عند إنتاج النص وتلقيه أو حتى نقل ما يحدث في

هذه العمليات بشكل متزامن وما يحدث في المقابل بشكل متعاقب أو مواز. وما العمليات والإجراءات التي يتطلب أخرى. وأنها في المقابل يحكم الأخرى... إلخ. تحاول النماذج النفسية أن تجيب عن هذه التساؤلات ويجب على النموذج اللغوي لتحليل النص، كما تؤثر المعالجات الحالية، أن تصف في الأغلب أي أنظمة المعرفة التي تتحقق في البنية المتعددة الأبعاد لنص ما وكيف تقوم هذه الأبنية بوظيفة مميزة. لذلك فإن الإطار النظري لتحليل النص المخطط في الكتاب والذي طور بالتفصيل في الفصول التالية ليس نموذج عملية ما بل هو نموذج إجرائي استخلص من تلك العمليات المحددة لإنتاج النص وفهمه، ولكن يحاول أن يبين كيف وما المعارف التي تتحقق في أبنية النص من خلال أنشطة تفاعلية للأشخاص الفاعلين اجتماعياً، وكيف تصير بدورها من خلال هذه الأخيرة قابلة للتفسير، لذا لا ينظر النموذج الإجرائي إلي النصوص على أنها شيء منته، بل يخضعها لمعيار مركب من شروط إنتاجها وتلقيها، ويبين من خلال ذلك أن النصوص لا معنى لها ولا

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

وظيفة في حد ذاتها، وإنما اتصالاً بالأشخاص
الفاعلين اجتماعياً. إنه لا يصف كيف يجري
«اللعب» بل ماذا «في اللعب».

7-2 النص ونظرية النص

إن النموذج الدينامي الإجرائي لتحليل النص،
كما حاولنا رسمه في هذا الفصل لا يزال فقط الفصل
الحالي بين النص والحديث، بل يكتسب في هذا
الفصل كثير من المفاهيم الأساسية اللغوية النصية، بما
فيها مفهوم النص، مضموناً جديداً.

ما يزال مفهوم النص في معالجاتنا الحالية
يستخدم استخداماً مبايناً للغاية، فمن جهة يفهم
النص من زاوية المنتج على أنه تحقيق لغوي لحدث
كلي ذي أساس قضوي مناسب، أي أن النص يفهم من
هذا الجانب على أنه وجود ذهني يتحقق لغوياً في
أثناء عملية إنتاج النص تدريجياً، ويخرج إلى
السطح. ومن جهة أخرى يوضح النص من زاوية المفسر
تدريجياً، ويخرج إلى السطح. ومن جهة أخرى يوضح

النص من زاوية المفسر أيضاً، ويبين في ذلك بوجه خاص، كيف ينشأ من النص مرة أخرى تمثيل ذهني، أي تمثيل معنى النص أو وظيفته في وعي المفسر. وأخيراً من جهة ثالثة يعتمد مفهوم النص على حصيلة النشاط اللغوي، على أوجه الوجود الممثل كتابياً أو شفويّاً ومن ثم يمكن إدراكها. وحتى لا تظل التصورات الجوهرية مستخدمة بمفاهيم متباينة فلن يستعمل النص فيما يلي إلا بالمعنى المذكور أخيراً، ومن ثم يرتبط بالمنطوقات التي تمثل في أحد هذين الشكلين والتي يمكن أن تلحق بصيغة وجود من هاتين الصيغتين. نحن نعلم من تجربتنا الاتصالية أن النص لا يمكن أن يتحقق فقط من خلال الأنظمة المعرفية التي وصفت بالتفصيل في 2-4. ففي مواقف اتصالية كثيرة أو أنماط اتصال تدخل حركات الجسم وتعبيرات الوجه في تكوين النص، وهي التي لها وظيفة مؤثر بالغة الأهمية لفهم النص.

وتوجد أخيراً أنماط من الاتصال تضم فيها النصوص إلى جانب أنظمة المعرفة المذكورة رموزاً، وصياغات ورسوم وأشكال تصويرية وغيرها. ولذلك

فإن التفريق بين الفهم الواسع والفهم الضيق للنص يتضح أنه يناسب الهدف، حيث يشمل (الفهم الواسع) كل تلك الأنظمة السيموطيقية التي تتحقق في بنية نص ما إلى جانب نظام العلامات، اللغة. إن أغلب طرائق البحث اللغوية النصية الموجودة إلى الآن تقوم على الفهم الضيق للنص. ولا يعد هذا تقييداً غير مشروع، بل نتيجة منهجية ضرورية أفرزها واقع المعرفة الحالي. فثمة مشكلة ما تزال إلى اليوم لم تحل بعد، وهي كيف تتضافر وسائل لغوية ووسائل مصاحبة للغة (أي حركات الجسم وتعبيرات الوجه وغيرها)، وكيف يمكن وصف الأدوات المصاحبة للغة بالتفصيل، وكيف يمكن أن تدمج في نموذج تحليل النص. ولذلك فإن إغفال هذه الظواهر. وفي العمل الحالي يفهم النص بالمعنى الضيق له أيضاً. ولذلك لا تعكس تحليلات النص إلا النتائج اللغوية. حتى الآن كان قد اقترح بعد وصف المكونات المهمة لإنتاج النص وتلقيه أيضاً تعريفان تجريبيان للنص، استنبطهما المؤلفان من الوضع المتطور للإطار النظري الذي حددت معالمه هنا. وفي النهاية سنحاول أن نحدد هذه

التعريفات استناداً إلى نموذج تحليل نصي دينامي تحديداً دقيقاً. وفي ذلك يمكن أن يشار إلى أن الأمر هنا يتعلق بتعريف للنص، يكون عاماً من جهة بحيث يضم كل أشكال الورد النصي ما أمكن ذلك، ولكنه يكون خاصاً أيضاً من جهة أخرى، بحيث يمكن من التفريق بين ما هو نصي وما هو ليس بنصي من المنطوقات اللغوية ولا يجب أن ينظر هذا إلى هذا التفريق على أنه فاصل حاد، يمكن من خلاله أن يتحدد بدقة الموضوع الذي ينتهي عنده نص ما عن أن يكون نصاً، مثل هذا الفرض سيتعارض أساساً مع نموذج دينامي لتحليل النص. غير أنه من جهة أخرى تجب المطالبة بأنه ينطلق كل اقتراح للنموذج تحليل نصي من مفهوم للنص راسخ نظرياً. أما إلى أي مدى يعكس هذا المفهوم فهمنا اليومي ومعرفتنا البسيطة عن النصوص، وعن خواصها ووظائفها، فهي مسألة أخرى.

ويفهم ضمن النصوص نتائج النشاط اللغوي للأشخاص الفاعلين اجتماعياً الذين ينشط من خلالهم معرفة ذات طبيعة مباينة اعتماداً على التقويم

الإدراكي للمشاركين في الحدث وسياق الحدث أيضاً مع منتج النص، تلك المعرفة تتحقق في النصوص بطريقة خاصة، وتتشكل بنيتها متعددة الأبعاد. إن بنية النص تؤشر في الوقت ذاته إلى الوظيفة التي يلحقها المنتج بنص ما في سياق تفاعل معين، وتمثل الأساس لعملية تفسير معقدة من متلقي النص. فالنصوص - بالمعنى المفهوم هنا - وكما أكد على ذلك مراراً من قبل - تجسد نتائج الفاعليات. وتبعاً للفهم الدينامي للنص ينطلق من نصوص لا معنى لها ولا وظيفة لها في ذاتها، وإنما لا يتحدد ذلك إلا اتصالاً بسياقات التفاعل وكذلك المشاركين في الحدث الذين ينتجون النصوص ويتلقونها. وبذلك لا تكون النصوص في ذاتها متماسكة، على نحو ما تذهب أغلب اقتراحات النماذج إلى الآن، بل إن المشاركين في الحدث هم الذين يمنحون النص السياق ويحققونه في بنية النص حتى يعاد بناؤه ثانية في عملية الفهم المعقدة التي تتفاعل فيها معلومات النص والمعرفة الموجودة مسبقاً تفاعلاً شديداً فالتماسك يكون

مقصوداً من المنتج ويكون متوقعاً من المتلقي ويعزا إلى تتابع المنطوقات في أثناء عمليات فهم النص. إذا ما قورن هذا التحديد المفهومي للنص، وكذلك الخواص المقولية المستنبطة منه بتعريفات النص التي طورت على سبيل المثال في إطار أنحاء النص، فإن الاختلاف الجوهرى يتضح في نواح عدة. فأغلب تعريفات النص الموجودة تذهب إلى أن النصوص أربع علامات مقولية أساساً، فمن جهة يفترض أن النصوص في الأساس أكثر تعقيداً من الجمل، مما يترتب عليه أن يفهم ضمن النص تتابع من منطوقين فأكثر (عدة منطوقات لغوية). والحد الأدنى من ذلك يتحدد عادة من خلال مصطلحات نظرية نحوية، مثل الجملة أو منطوق الجملة أيضاً، أما الحد الأعلى في المقابل فيتحدد من خلال اصطلاحات الأجناس الأدبية، مثل الرواية، القصة (الحكاية) إلخ. ولا يكفي معيار التعقيد لتمييز النصوص عن المنطوقات غير النصية، إذ تحاول كل تعريفات النص تقريباً أن تدلل على هذا الفارق من خلال معيار التماسك، حيث يفهم تحت التماسك خاصية نصية داخلية تبينها

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

آليات كثيرة للربط، مثل سلاسل التناظر واصطلاحات الربط وغيرها. وقد شغل المعيار الثالث بشكل أقل في التعريفات الموجودة بـ: موضوع النص الذي يستخدم كذلك لتمييز المنطوقات النصية عن المنطوقات غير النصية. رابعاً وأخيراً يطالب للنصوص كخاصية مقولية الاستقلال النسبي. وعلى الرغم من أن إمكانية إيضاح هذه المفاهيم ظلت غير محددة إلى حد بعيد فإن كل تعريفات النص الموجودة تقريباً تنطلق من هذه الخواص المقولية. قارن بتوفي Petofi (محرر) (1979 و1982).

إن التعريف الذي نقترحه للنص ما يزال لا يفي دون شك بكل المتطلبات التي تنصب على تعريف مؤسس نظرياً. غير أنه لا خلاف هنا في أنه يتجاوز التعريفات الموجودة للنص ويُمكّن من تخطي الفهم الاستاتيكي السائد من قبل إلى الآن للنص. ومن جهة أخرى لم تعد الخواص الجوهرية للنصوص مثبتة بالاستنتاجات اللغوية المفردة، بل صارت تفهم على أنها نتيجة جهد تفسيري معقد، لا يشمل الدمج

القضوي فحسب، بل دمج الأحداث الإنجازية،
وحدات الحدث، ووحدات البنية الكلية للنص أيضاً.
وانطلاقاً من هذا الفهم الدينامي للنص يجاب
أيضاً عن السؤال المطروح كثيراً في تاريخ علم لغة
النص حول مجال موضوع نظرية النص وبنيتها أيضاً.
ونحاول في إطار المعالجة المدمجة المتطورة هنا
أن نفصل في مجال الحقائق المعقد للنص بين مجالات
مفردة ذات خواص بنيوية ووظيفية بعضها عن بعض
ووصف وإيضاح كل منها من خلال نظريات خاصة.
وبعبارة أخرى: تفهم نظرية النص على أنها نظام من
نظريات جزئية مترابطة في علاقاتها الداخلية يصور
كل منها خواص محددة للبنية المعقدة للنص، ويوضح
كيف توضع هذه الأبنية في وظائف معينة. فنظرية
النص بوصفها نوعاً من النظريات العليا لم تدرس
لذلك إلا درساً غير ملائم مثل كثير من المحاولات
الحالية لتوسيع النماذج الموجودة تدريجياً، طالما
تصطدم هذه بدالحقائق التي تتجاوز الإطار المقولي
لتلك النماذج. ويجدر التذكير هنا مرة أخرى بمحاولة
تكوين أنحاء النص أو إدخال ما تسمى بالمكونات

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الاتصالية - البراجماتية في النحو التي تدرس من خلالها الخواص المتجاوزة للجملية أو الجوانب الاتصالية البراجماتية للمنطوقات. في تلك المعالجة قد تبين أنها غير ملائمة.

تضم نظرية النص حسب فهمنا ثلاثة مجالات كبرى للنظرية، تحدد فيما يلي:

- نظرية النحو.

- نظرية الفعل اللغوي.

- نظرية إنشاء النص.

وتشمل كل واحدة من هذه النظريات بدورها عدداً كبيراً من النظريات الجزئية التي تصور كل منها خواصاً مميزة لبنية النص. فنظرية النحو ونظرية المعجم تصفان أنظمة المعرفة التي صارت متحققة في النص، والتي سميت في 2-4 المعرفة اللغوية. أما نظرية الفعل اللغوي فتوضح في المقابل بناء وتوظيف المعرفة الإنجازية الضرورية لإنتاج النص وتفسيره؛ معرفة عن معايير اتصالية عامة، ومعرفة ما وراء الاتصال أيضاً. وأخيراً توضح نظرية إنشاء النص مبادئ تنظيم

الأبنية الكلية للنص وكذلك خواص الأنواع النصية. إن تصوير جوانب معينة لبنية النص في نظريات مفردة لا يتجاهل بأية حال من الأحوال أن الأمر هنا يتعلق لطواهر على درجة عالية من التداخل، ولا يميز بعضها عن بعض عدد أوجه النظر العلمي إلا بهدف إمكان النفاذ بصورة أعمق إلى علاقاتها المتداخلة من خلال تحليلها المنظم. وماتزال هذه المجالات الثلاثة للنظرية تدرس في الوقت الحاضر درساً متفاوتاً. ومن ثم فلدينا معرفة جيدة نسبياً عن المجال الموضوعي للنحو، وعن الوحدات الممثلة فيه وعن بنية المعجم ووظيفته وعن توظيف المعرفة النحوية والمعجمية. أما الأقل نضجاً في المقابل فهي ماتزال نظرية الفعل اللغوي التي لا تتوقف عند حد تحليل منطوقات جميلة مفردة. وأخيراً ليس لدينا، في الوقت الحالي إلا معرفة محدودة للغاية عن الأبدية الكلية للنصوص، وإن كان من الممكن استخلاص نظرات عميقة في أبنية كبرى محددة للنصوص.

* * *

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الحداثة والثقافة حالة العمال المهاجرين

دو منيك شبر

ترجمة عبدالسلام فزازي

ساير الخطاب السوسيولوجي المتعلق بالتحام الثقافة منذ الحرب العالمية الثانية، نموذجاً فريداً من التطور وفق مراحل المتتالية⁽¹⁾؛ وذلك في حدود عدم وجود سوسيولوجيا مستقلة تماماً من الواقع الاجتماعي الذي تأسست فيه مراحل تاريخ التطور الاقتصادي وانتشار الحداثة. وفي سنوات الستينات،

اقتضى الأدب السوسيولوجي ذو الطابع الاقتصادي وافترض أن جل مجالات الحياة الاجتماعية أدت إلى حادثة عن سبيل واحد⁽²⁾ واضح تقريباً، لا يمكنه إلا أن يقود إلى تصور موسوم بالتقدم من أجل التلاحم مع نوع واحد من المجتمع الصناعي⁽³⁾. ولن يتسنى لنا البتة فهم الأدب إلا إذا تناسينا أن إنتاجه كان متزامناً مع حصول البلدان المستعمرة على استقلالها، تلك التي كانت منفتحة على العصرنة السياسية (البلاد المركزية والموحدة في مقابل الخصوصية لجميع الأنواع)، والتطور الاقتصادي كمعطي للإثبات والقوة الوطنيين. هذا الخطاب الموحد للحداثة كمعطي ثابت، أعيد النظر فيه خلال سنوات السبعينات حين هيمنته تدريجياً على كل المجتمعات ومجالات الحياة الاجتماعية. أكيد أن بروز أوطان حديثة الاستقلال كشف عن تغيير ظاهر وجلي في أشكال النمو الاقتصادي (بما فيه اللانمو والتراجع)، والتحويلات الاجتماعية في الشكل الذي تظهر أو تتقوى فيه التقاليد الأهلية، رغم ما تتبناه بعض السيمات المرتبطة بالحداثة. كما أكدت فضلاً عن ذلك تحليلات

دقيقة على وجود علاقة بين التقليدي والحداثة لا تتجلى في مجرد تماثل بسيط، وأن ثمة بلدنا مختلفة أيضاً، ومنتصنة كبريطانيا العظمى، وإيطاليا، واليابان، قد كانت من المؤسسين لتقدمها بإعادة تفسير عادات ما قبل الحداثة. كما بدت للعيان من جهة أخرى، بصمات مشاركة النخب التقليدية، وإدماج مؤشرات تقليدية موضوعية أو رمزية أقل حاجز ومعرقل لتطور لا يمكن له الصمود، مما قد يبدو كأحد الشروط الضرورية للتطور ولتثبيت مجتمع حديث⁽⁴⁾. وفي الختام، إضافة إلى كل هذا ترى الملاحظة الإمبيريقية أن الأمم الحديثة والبعيدة عن متابعة نموذج أوروبا الغربية تطورت حسب قانونها الخاص، بالقدر نفسه للتطور والحداثة الذي طرح ثانياً للبحث داخل المجتمعات الغربية، مثلما هو الشأن بالنسبة لمثلي الحركات الاجتماعية الملهمه يسارياً، وكما هو الشأن كذلك بالنسبة لعلماء الاجتماع الذين يحدوهم الإحساس «بخيبة التقدم». هذا النقد للحداثة وجد ثانية في النقد الروائي الذي يعارض العقلنة في المجتمع الحديث الذي فشلت فيه

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

السوسيولوجيا الكلاسيكية، حيث قابلت التجمع بالمجتمع أو الثقافة بالحضارة.

ولقد منحت هذه الانتقادات خطاباً مزدوجاً أو بالأحرى خطاباً ذا مظهرين: من جهة، منحت التصدي المؤثر للنمو الاقتصادي «التدمير بكل أوصافه»⁽⁵⁾، وللتقابل الكوني ولمواطنيه عالمية مساوية «لعالم عقلائي»، «لمناهضة الطغاة بين الاستطاعات المتجانسة والقدرات المختلفة»، من جهة أخرى، منحت هذه الانتقادات تحليلات متعلقة بالهوية وأشكال الإعدادات الذاتية، ولإثبات الخاصيات على حساب المشاركة الوطنية، ولبناء مفهوم عرقي لإعادة الاعتبار للشكل الجديد للصراعات الاجتماعية في الولايات المتحدة، ولإبراز النزعات الإقليمية، كحركات اجتماعية متميزة في أوروبا الغربية. وكما يوجد هناك أيضاً، علم الاجتماع متأصلاً في المطالب والصراعات بين المجموعات الاجتماعية التي يدرسها.

لا يمكن لنا اليوم متابعة الانعكاس الجدلي من هنا أو هناك لأشكال الالتقاء بين الحداثة من جهة،

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

والأشكال الثقافية والاجتماعية والسياسية التقليدية من جهة أخرى، على الأقل في إطار ما أصبح يبدو لي محتملاً أن ننطلق من نتيجة أن تعدد الأشكال التبادلية والاقتباسات التي غدت تثبت بين بعض النماذج من السلوكيات، واردة عبر لوازم جليلة أو ضمنية لحدثة ولنماذج موروثه من عادات خاصة. ولعل هذا التعدد ليس إلا خلاصة لغنى المجتمع البشري، رغم ما يلاحظه س.ن. إيسنستاد من أن التحديث أو الحدثة تكون نموذجاً حضارياً في أعماقه الاقتصادية والسياسية والأيدولوجية، فيما يخص أوروبا الغربية فرضت من الآن فصاعداً في العالم بأكمله، إذ لم يبق شيء أقل بعداً من تدمير الثقافات التقليدية، بينما توجد الحدثة مؤولة ثانية في معنى الأنثروبولوجيين عبر مختلف الوحدات الثقافية. وأشكال هذا التأويل مرتبطة في الوقت نفسه بمميزات الثقافة الأصلية، والظروف التاريخية اللتين يتأسس بحسبهما ويثبت الالتقاء مع الغرب.

ففي خطاب أساسي لتحديث وحيد كنتيجة وكقيمة تحل تعددية التحاليل الخاصة، نقترح هنا

الإتيان بمساهمة في خطاب سوسيولوجي إجمالي لتعددية قضايا الحداثة، صعبة تحليل بعض خصوصيات مثاقفة العمال المهاجرين في فرنسا⁽⁶⁾. وفي هذا الإطار يجب الإشارة إلى أن ساكنة مثل هؤلاء المهاجرين المنحدرين من مجتمع تقليدي، يوجدون أصلاً في مواجهة مع متطلبات المجتمع الذي يقيمون فيه، والذي يعتبر بشكل من الأشكال مجتمعاً حديثاً. وانطلاقاً من هذا المثال المتميز والخاص، سنحاول تفسير وتوضيح بعض الأشكال التي تتمثلها قضية المثاقفة مع الحداثة والحدود التي تحدها.

أما اللقاءات التي شهدتها فرنسا حول موضوع العمال المهاجرين الأجانب، فإنها لم تشكل في حقيقة الأمر إلا حالة خاصة من مواجهة واسعة جداً. إذ توبع التضيق السياسي لبلدان أوروبا الغربية منذ الحرب العالمية الثانية بنشر الحداثة الغربية بخصوصياتها الأساسية: للوطن الأم، ثم الميل إلى العقلنة المتمثلة في النظام الاقتصادي. هذا النشر للحداثة يقود إلى نوع من المواجهة الثقافية عامة: وهكذا أدت الوضعية

الاستعمارية لتليها بعد ذلك الوضعية الاستقلالية، إلى إعادة طرح لاحق من أجل البحث بشكل مباشر في الثقافة الغربية، كما هو الشأن بالنسبة للثقافات «الأهلية» الواحدة منها تقابل الأخرى، حتى وإن كانت المواجهة تدور في مواضيع غير متكافئة. ويمكن للأنثولوجيا أن تؤول بدورها كمعطى ثان للبحث في الثقافة التي ينتمي إليها الأنثولوجي بقدر الثقافة التي يلاحظها هو، حيث لا يلاحظ الآخر إلا عبر أصناف ثقافته الخاصة، ومع كل ذلك تمثل المواجهة الثقافية المؤسسة إبان هجرة العمال المهاجرين أحد الأعداد المميزة.

أما العمال المهاجرون، فلا يشكلون شعباً متجانساً، بل على العكس يختلفون بعضهم بعضاً، من حيث وقت الهجرة مقابل تاريخ مجتمع الأصل⁽⁷⁾ ومجتمع المهجر، ويختلفون أيضاً من حيث المسار الشخصي الذي يلي الهجرة. ولعل الموضوع الحقيقي للتحليل السوسولوجي - كما يكتب بدقة - لا يتكون فقط من المهاجرين، بل يتكون أيضاً من الفئات المهاجرة التي تعرف سكاناً لهم نفس الأصل

في مرحلة معينة⁽⁸⁾. وسنحاول جاهدين رغم تنوع ظروف وشرح الهجرة وأشكال المثاقفة، إبعاد ما يميز وضع المهاجر مباشرة، إذ ليس مجال الحديث هنا عدم قبول الاختلافات بين الفرق، أو العودة إلى تعليل إجمالي، بقدر ما هو محاولة تحليل الخصائص المشتركة لكثافة سكانية، ذلك لأنها ناتجة مباشرة عن أوضاع السكان المهاجرين المواجهين لنفس متطلبات المجتمع الحديث. لما لا يمكن التحدث عن «المهاجرين» إضافة إلى أنه لا يمكن أن نحلل مجتمع الإقامة على أساس أنه يشكل كلاً متجانساً، ليس لأنه يتضمن تنوعاً ثقافياً مرتبطاً بالأشكال المختلفة للامساواة الاجتماعية والمشاركة غير العادلة، فيما يمكن تسميته حسب هالبواكش «بالبيت» المشتتمل على القيم المشتركة ليس إلا، ولكن أيضاً ينسحب هذا أيضاً على كل مجتمع، حتى بالنسبة للمجالات الأكبر تعرضاً وخطورة، وذلك مخافة أن تكون قد مست بالعقلنة. ويتضمن كذلك المكونات التقليدية والحديثة كما سلف أن قلنا.

أکید أن قضية العقلنة هذه لم تقص لا قوة

الوراثة ولا تأثير التقاليد. ومجتمع الهجرة ليس حديثاً كلية، كما أنه يعتبر الأصلي، ولا يمت بصلة إلي التقليدية. ولا يعد مجتمع الهجرة في مجموعه الذي هو عليه، مجتمعاً يتبنى الهجرة على عواهنه، بل يتبناه أيضاً في بعض مقتضياته.

يتبنى الأدب السوسيولوجي ثلاث وجهات نظر، فيما يخص قضية العمال المهاجرين: وجهة نظر عالم الاقتصاد الذي يصون وبشكل منطقي تقسيم الموارد والثروة والعمل والتحويلات المالية الذي يستجوب المهاجرين كممثلين للتاريخ أو السياسة، ثم أخيراً وجهة نظر عالم الاجتماع ذي المنحى الثقافي، الذي يحاول رد الاعتبار لأنواع المهاجرة الناتجة عن الهجرة والإقامة في البلاد الحديثة⁽⁹⁾. وتحدد التحليلات المتعاقبة في هذا المنظور الأخير: إذا كان صحيحاً كما كتب بالتنافس منظرو الحداثة منذ ماكس فيبر أن الحداثة تقتضي أولاً، موقفاً فكرياً وأخلاقياً تجاه العالم، حيث يمكن للتحليل الثقافي في ظروف معينة أن ينكشف للعيان ملائماً تماماً. أما وجهة نظري الثقافي، هي في الواقع كشف خصب عندما يوسع

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

في تحليل الأوضاع الاجتماعية الموضوعية ومنحها معناها الحقيقي والجدير بها، وبعبارة أخرى حين تناوله سكاناً متقاسمين لنفس الوضع الاجتماعي الموضوعي وتتهياً لهم فرص مماثلة، آنذاك يكشف الالتحام الرمزي في مجموع سلوكياتهم. هذه التحاليل مستقاة من قراءة نصوص عدة لها علاقة بالعمال المهاجرين في فرنسا، إلا أنها تنصب أساساً على مثالين يبدو الواحد منهما مبتعداً عن الآخر: المهاجرون الإيطاليون ما بين 1950 و1970 والأتراك منذ 1970. إذا كان العمال الإيطاليون يظهرن بعد التجربة التاريخية بأنهم قادرين على الاندماج بوجه خاص في المجتمع الفرنسي، فإن العمال الأتراك يؤكدون عزمهم علي البقاء أتراكاً⁽¹⁰⁾.

من الهجرة الاقتصادية إلى الهجرة السكانية

يشتمل التحديد النموذج المتميز لأوضاع العمال المهاجرين على ثلاثة حدود: تواجد أجنبي، تواجد مؤقت، وتواجد لأسباب العمل، ثلاثة مميزات لتواجد

المهاجر متلازمة ومتفاعلة فيما بينها، وهي تعمل في تبادل وثيق ومرتبطة⁽¹¹⁾.. ولقد أكدت الدراسات الأمبريقية في وقت معين، أن إدماج المهاجرين في الأوضاع الاجتماعية يتناسب مع هذا التحديد. يلاحظ على سبيل المثال، أن المهاجرين الأتراك في السنوات الأولى إبان حضورهم في فرنسا وألمانيا، حيث كانوا يعملون كل ما في جهمهم من أجل ادخار المال وتحويله إلى بلدهم الأصلي فيكونوا بذلك دخلاً على شكل شراء عقاري أو كسب الأموال التجارية. (لذا) نقص الاستهلاك على الأقل بطريقة غير قابلة للانضغاط لحساب هذا الادخار. لقد حددت العلاقات مع بلد المهاجرة، إذ اعتبرت الإقامة مؤقتة ضمن علاقات عملية ضرورية». وكيف ما كان: فإن الأجنبي يأتي كعامل ويعود من حيث أتى، غايتنا الوحيدة هي المال» (ر.ك. ص 87). أكيد أن رفض تعلم لغة بلد الإقامة لا يترجم حتماً إلا موقف المجموع بمراعاة المجتمع الإجمالي. وينضاف تحليل نمط عيش العمالة التركيبية في **شتوتغارت** إلى التحليل الذي عرضه الباحثون على نفس العمال بفرنسا.

يبقى حتى بالنسبة لفرص العمل التي لا تقتضي في جل الأحيان أدنى أهلية مهنية، لا تساهم إلا في مشاركة هامشية في الحياة الاقتصادية (جل الأحيان في البناء أو كعامل مختص في الصناعات الثقيلة أو صناعة السيارات). يقضي جمع وتقسيم المال المدخر للتعود على مقتضيات العمل الجماعي والتداخل على الأقل جزئياً (الذي لا يستبعد الانحطاط) في حساب اقتصادي معقول. لكن المهاجرين لا يتوافقون مع التحديد النموذج المثالي - حيث لا يفسر حضور العمال الأجانب إلا بالعمل أو بصورة مؤقتة. إلا في غضون مرحلة قصيرة.

إن الأبحاث الأميركية تؤكد أن هذه الممارسة الجلية في الحياة الاقتصادية - التي لا تبعد فضلاً عن ذلك على أن هذا العمل مشحون بقوة قيمية رمزية في مجتمع المنشأ - لا تتجاوز السنتين أو الثلاث سنوات من إقامة المهاجرين، كيف ما كانت على سبيل المثال إرادة العمال الأتراك والتفسير الذي أعطوه لانطلاقتهم، فالتواجد في البلد الحديث يفسر هذا الموقف الأولي. أكيد أن وضعية المهاجر لن تفهم

إلا بتقصي تاريخ مساره الفردي قبل الهجرة. إن العمال الأتراك شأنهم شأن العمال الإيطاليين، بعد عشرين سنة أعطوا لانطلاقتهم اتجاهاً لمشروع تحرك اجتماعي داخل تركيا، والذي يشكل فيه النشاط المهني في بلد المهاجرة مرحلة ضرورية ومؤقتة، فلقد أتت الهجرة لتؤكد ولتعجل بنظام كان قد شرع فيه في المجتمع الأصلي، إذ أن أول تهدم للعلاقات الاجتماعية التقليدية كان هو إعادة النظر في الدورين الأسريين تحت تأثير التحضر. ولقد أخذ المهاجرون المتحضرون في الغالب بعداً معيناً بمراعاة الاقتصاد والثقافة التقليديين يشكلون سكاناً فقراء، إنما أرهق طموحهم بسبب وضعيتهم الاجتماعية في بلد المنشأ. إن التنشئة الاجتماعية السابقة المتعلقة بهذا المشروع التحركي، انكشفت عاملاً ملائماً لإدماج معايير مرتبطة بالنشاط المهني في بلد الإقامة. في هذا الصدد، ليست التنشئة الاجتماعية السابقة للعمال الأتراك والإيطاليين مختلفة أساساً عن تلك الخاصة بالمهاجرين الذين نزحوا من قرى جنوب إيطاليا، أو من الجزر، للعمل في الصناعة في المثلث الصناعي في

شمال إيطاليا أثناء مرحلة «أعجوبة إيطاليا»⁽¹²⁾، بينما هذا المشروع نفسه كان في تناقض مع الدور الاقتصادي الخالص الذي يريد أن يفرضه بلد المهاجرة على المهاجر.

أكثر من ذلك، ساهم التثاقف مع مجتمع الإقامة في تغيير هذا المشروع الأساسي. إن المجتمع الأسري، الذي يظهر بمعدل ثلاث سنوات بعد هجرة رب الأسرة، يشكل من جهة عاملاً أساسياً وعلامة على هذا التغيير: يكف المهاجر أن يكون دوره متمثلاً في عامل واحد ليس إلا. إن البنية السكانية المهاجرة والأكثر تحديثاً، أعيد لها في واقع الأمر توازنها بشكل سريع، وذلك بتضاعف فرص الدخول في مقاييس مجتمع المهاجرة: تعليم الأطفال، مشاركة النساء في الإنتاج الصناعي، أو في الحياة العادية للطبقات المتوسطة أو العليا بواسطة العمل المنزلي. يعرف فعلاً على عكس من بعض الأفكار المأخوذة أن نسبة متزايدة من النساء تشارك في سوق العمل، دون نسيان وبكل تأكيد النسبة المتزايدة من الأطفال

المهاجرين⁽¹³⁾. عن الهجرة الاقتصادية المقننة من وفي العمل أصبحت بسرعة هجرة سكانية.

هكذا كانت السلوكيات وإلى حد الآن مدعمة بعزيمة قوية لتوفير المال، والسكن، والأكل والهوايات، من أجل الاستثمار في تركيا أو في إيطاليا، لكن حضور العائلة يفرض ويعلل سلوكاً اقتصادياً جديداً مقتبساً من مجتمع الإقامة، ذلك المرتبط بالمستهلك، حيث يمتلك المهاجر بالخصوص آلة الغسيل الإلكترونية والسيارة، اللتان كونتا مؤشرين لنجاح اجتماعي في أوروبا في الثلاثين سنة الأخيرة. فجهاز التلفزة يظل دائماً مشغلاً، حتى وإن كان المهاجرون يجهلون لغة البلد والزخرفة في جميع بيوتهم الخاصة، آلة الغسيل علامة لحمل جديد في العمل المنزلي، امتلاك السيارة، وضعية استقلالية الأسرة، وهي مؤشر في تركيا أو في إيطاليا لنجاح الهجرة. هذا يبين التأكيد في سير الاستهلاك على حساب المال المدخر. من أجل السكن بقي الاستهلاك مدة طويلة مختلفاً عن استهلاك العمال الفرنسيين. عرض يطبق على جميع السكان

الذين ليست لهم حظوة: إن مثال السود في الولايات المتحدة يوضحه كذلك: فرغم تطورهم الإجمالي، خلق مشكل التمييز في السكن منذ عشر سنوات، حيث بقي غالباً جداً، أقل تجهيزاً وأكثر تسكاناً من السكن الخاص بالبيض ذوي نفس المستوى الاجتماعي⁽¹⁴⁾. كذلك في فرنسا وألمانيا قامت الحركات المطالبة للعمال المهاجرين بمظاهرة أولية حول مشاكل السكن، منذ عشر سنوات. فلقد استقر الأتراك الذين أتوا مؤخراً، إما في الأحياء العتيقة والأكثر فقراً، أو في مساكن متوسطة الإيجار والأكثر فساداً⁽¹⁵⁾، في المدن الصغيرة أو المتوسطة. بينما في باريس يلمون غالباً بين مشروع الخياطة في المنزل والحياة العائلية في الشقق الصغيرة. إن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تشغل كاهل السكن في المجتمع المهاجرة تضيف تأثيراتها إلي تلك الخاصة بالمهاجرين الذين يفضلون في أولى اختياراتهم الاقتصادية اقتناء أحسن الأثاث وبكل أنواعه على حساب العقاري. لكن مثال المهاجرين الإيطاليين، الذين بعد بضعة سنوات أصبحوا يقتصدون في جميع مرافق النفقة لشراء

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

قطعة أرض بينون فيها منزلاً بمساعدة عائلتهم، يوضح أن هذا الموقف ليس نهائياً⁽¹⁶⁾.

إن التناقض بين السلوك الأولي للمهاجر ومتطلبات الاستهلاك لأطفاله تظهر بشكل سريع: كنت مرة في السينما، مع المدرسة ليس للآباء وقت «ر.ك. ص 124» فما من مرة طلبت من أبي بأن يرافقنا إلى البادية يقول: آه، لا، عندي عمل! نحن كأطفال بدون آباء «ر.ك. ص 124».

وعبر معايير السلوك الاقتصادي، أعيد النظر بشكل جلي في العلاقات داخل المجموعة الأسرية. إن السلوكيات الاقتصادية المتماثلة ليست اقتصادية جلية فقط، بل تفرض أيضاً القيمة الممنوحة للفردانية وإكمال الذات، وإرضاء رغباتها على حساب القيمة الممنوحة لمعايير مجموعة كونت بقوة. ومع ذلك، ينبغي تحديد نتائج وحدود قضية المشاقفة المستنتجة من خلال السلوكيات الاقتصادية.

الترقيع الثقافي أو المشاقفة المقننة والمحدودة

إن نموذج المهاجرين الإيطاليين والأتراك تكشفه

المثقافة التي لا تستند على السلوكيات الاقتصادية ولا حتى الهجرة التي أدت إلى إعادة تفسير الأدوار الأسرية. إن إعادة التفسير تختلف حسب السكان المعنيين، وهكذا تقربت الأسر الإيطالية إلى أسلوب الفرنسية ذات نفس المستوى الاجتماعي، أكثر من تقرب الأسر التركية إلى هذه الأخيرة. وتختلف داخل كل مجموعة وطنية، حسب نشأة المهاجرين: بعضهم يرى أن الهجرة تعني كذلك المرور من العالم القروي إلى العالم الحضري، وبالمقابل عرف آخرون سابقاً قطيعة مع المجتمع القروي في البلاد الأصلية كشكل أولي للتحضر أو شبه التحضر، حيث عجلت الهجرة بمشروع حركي اجتماعي متحضر، كانت فيه الأوضاع متداخلة جزئياً على الأقل قبل الهجرة. إنها تختلف كذلك حسب المهاجرين المتفرقين بشكل نسبي في الوسط الحضري أو متمركزين في بيت عمالي (كما هو الشأن بالنسبة لقرى إفريقية تحولت كلية إلى بيت واحد)، أو في حي داخل مدينة صغيرة أو متوسطة في الإقليم حيث الحياة المشتركة منظمة، وترغم المراقبة من طرف التجمع على المهاجرين أن يستكملوا

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

توافقهم بقدر الإمكان مع معايير السلوكيات التقليدية⁽¹⁷⁾. مع ذلك يجب الاحتراس مع عدم النظر في تأييد التجمع الخاص إلا كعامل محافظ على الأشكال التقليدية للحياة الاجتماعية، فهو يلعب دوراً مثل دور الأسرة، لكن يمنح كذلك المهاجر شكلاً للاندماج في مجتمع الإقامة، بمساعدته على حل الصراعات مع المجتمع الإجمالي، وبمساعدته على تقليص الصراعات الأسرية، وتأسيس ثقافة محدودة كما سنرى في الأسفل.

رغم النتيجة المختلفة لهذه المتغيرات، نلاحظ تطوراً مشتركاً ولو أنه بطريقة غير متساوية الإثبات نحو نووية الأسرة التي أصبحت تجمع استهلاك (بالنسبة للأتراك خاصة) وإنتاج، وأصبحت كذلك مركز قرار مشترك؛ حيث أخذت الروابط بين الزوجين اتجاهاً جديداً في المجال، الذي لم يعد ينحصر فيه دور الرجل خصوصاً على مشاركته في الحياة الاجتماعية خارج الأسرة، ولعل هذا التجديد في الحياة الأسرية أصبح ملحوظاً بشكل خاص عند المهاجرين

الإيطاليين. ففي الأسر التي تبقى أقرب إلى التقاليد نجد بعض عناصرها (من نماذج السلوك كمتحضرة لها قيمة) اندمجت بتغيير كثافة العلاقات بين الزوجين وتغيير مواقفها من الأطفال. (إن الأسرة في حاجة إلى أن تشكل كلاً، لسنا كلاباً، واحد يذهب إلى اليمين والآخر إلى اليسار⁽¹⁸⁾ وحتى في الأسر التركية، وبالخصوص تلك التي عرفت التحضر قبل الهجرة واستقرت في باريس، فالزوجان يأخذان الأهمية التي حرمتها الأسرة الأبوية.

أکید أننا نتحدث هنا مع زوجي عن كل شيء، ونأخذ قراراً مشتركاً، أما في تركيا فيوجد الكبار ولا يمكن أن نتصرف كما نريد، ونحن هنا أحسن وأكثر هناء. ك.ص 134. إن الترابط الأكبر للزوجين تتبعه علاقات حميمية بين الأطفال: في القرية لا يمكننا أن نحبهم ولا أن ندللهم كما نريد أمام أبينا، هنا يمكن أن نحب الأطفال كما نريد: «ك.ص 148» بصفة مجملية، فالآباء المهاجرون، الأتراك والإيطاليون، يولون أهمية لتعليم أبنائهم كما يقررون إقامتهم في

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

بلادهم الأصلية، أو في فرنسا، باسم مستقبلهم. كما أن جميع أسر المهاجرين الإيطاليين يولون أهمية لتثقيف بناتهم أكثر من الأبناء الذكور، ويرفضون بكل وقاحة فكرة أن الابن يمكن أن يتخلى عن دراسته ليخصص ما له لأخواته. أضف إلى ذلك، إن المسار الاجتماعي الذي تبع الهجرة وشكل الإقامة في فرنسا، أي تاريخ الروابط التي أسست بين المجتمع الأصلي والنماذج الغربية، أكثر من ذلك، فإن العلاقات التي يحافظون عليها في مجتمع الهجرة تمزج فكرة العدالة في الغنى وفي الحداثة بين مجتمع الإقامة والبلاد الأصلية. إنه السبب الذي يلحون بموجبه منذ مدة، على التطور الإيجابي للمجتمع الذين هاجروا إليه، مع تأكيدهم على كرامتهم الخاصة ومنح ذهابهم اختياراً عقلاً.

قبل أن تأتي، كان البؤس في إيطاليا، لكن الآن ليس نفس الشيء، الآن أحسن، الآن يوجد العمل، الآن يعيش الناس أحسن هناك (..) إلى جانب ما عرفته (..) الآن هناك تطور، لم أعد وطني، لأنه تغير إلى درجة عالية.

أما بالنسبة للأتراك، فإنهم يحافظون على ذكرى ولو أنها غير معبر عنها في عز الإمبراطورية: إن ذاكرتهم الجماعية المشيدة في ضوء تاريخ الإمبراطورية العثمانية، حافظت على ذكرى الشعب التركي العثماني مثلما حافظت عليها الكتب المدرسية والقصائد الشعرية والوعي الذاتي⁽¹⁹⁾، إنهم يحافظون كذلك على ذكرى أو ذاكرة (كما يسميه **برنار ليفيس** بإعادة تذكّر التاريخ (history remembered) في إرادة في التحديث لم تفرض مباشرة من طرف قوة غربية كما هو الشأن بالنسبة للوضع الاستعمارية، وإنما فرضت بمبادرة من حكاهم (**مصطفى كمال**)، تحت التأثير غير المباشر للنماذج الغربية، في اتصال تاريخي وسكاني⁽²⁰⁾. تفسر هذه الذاكرة بدون شك غياب العلاقات الموضوعية، وتفسر الاحتقار البارز للسكان المسلمين الكثيرين الآخرين بفرنسا وهم المغاربيون، فرغم مرجعية الإسلام الثابتة في أقوال المهاجر التركي، فإنها تفسر العلاقة المبهمة التي يحافظ عليها المهاجرون في مجتمع الهجرة. من جهة، إنها ميزة لمجموعات أقلية: الجاذبية بمراعاة

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الحداثة وإدانة سلوكيات الفرنسيين والمهاجرين الآخرين. هذه الإدانة مفسرة بالتفوق الأخلاقي والديني للإسلام. يعرف أن أقليات سكانية تعوض نقصها العلمي بالاستناد إلى التفوق الأخلاقي. بنفس الطريقة، فالماضي الاستعماري بعدم مساواته الجوهرية بين المجموعة المُستعمرة والمجموعة المستعمرة، استمر في تحديد أفق العلاقات بين الجزائريين والفرنسيين، وبقي الالتقاء بين المهاجرين وبلد الهجرة مرسوماً بما سمّيته سابقاً «باللاوعي التاريخي»⁽²¹⁾. لا تكفي ملاحظة الأشكال المختلفة للترمييق الثقافي الذي ينكب عليه المهاجرون، وكأن الأمر يتعلق بسياق وحيد متقدم تقريباً، إنما توجد حدود لمثاقفة المهاجرين، وحتى بالنسبة للأسر الأكثر «عصرنة»: فهذا الحد هو الذي يجب الآن تحديده.

النواة الصلبة

إن كل ثقافة معطاة في الواقع هي نتيجة لاحتكاكات مع العالم الخارجي، ومن خلال هذه

الاحتكاكات نفسها تتأكد الهوية كأفق، ولا يمكن تحديدها إلا كإبداع مستمر. فالثقافة لا يمكن تصورها إلا كشرط ونتيجة للفعل الاجتماعي والتفاعلات مع المجتمع ككل. من خلال هذه الاحتكاكات القارة - التي تلخص فيها الظواهر المحللة من طرف الانتروبولوجيون في مصطلحات: الاقتباسات، والنسيان، وإعادة تفسير العناصر الخاصة - تشكل الثقافة نظاماً ليس بالمعنى الضيق للمصطلح، بل بناءً أو نشاطاً يجب أن يحلل في مصطلحات إعادة التفسيرات الثقافية. والحالة هذه، يظهر أن مختلف عناصر نظام ثقافي قابلة للتداول بطريقة غير متساوية في السياقات الثقافية مع المجتمع ككل. بعض السمات يمكن أن تنقل من طرف شخص ما بدون إعادة النظر في هويته الباطنية، بينما سمات أخرى تفرض إعادة النظر هذه.

أصبح تقريباً الأطفال المهاجرون علماء اجتماع بسبب موقعهم بين ثقافتين، حيث أخذوا وعياً بهذا التمييز بين ما يمكن تسميته بالنواة الصلبة لثقافة

المهاجر وبين ما هو نتيجة للتشاقف، فالفتيات الحركيات اللواتي تربين على مسارهن الخاص بهن، لاسيما فيما يتعلق بزواجهن المستقبلي يعتبر نتيجة لنموذج سوسيولوجي؛ يلاحظ، وبكل تأكيد رغم الحكم السلبي الذي يحملنه على العادات الجزائرية الموروثة عن التنشئة الاجتماعية الأسرية، إنهن يتزوجن بالشباب المختار من قبل العائلة، نعم ما يفعل لا يمكن أن يتلخص منها «الهاء» تعني هذه النواة الثقافية الصلبة التي وباسم القيم «الحديثة» المنقولة من المدرسة، يحكمن أنهن «تجاوزن»⁽²²⁾ لكن يحترمن في سلوكهن هذا المعبر عنه بهذه الصيغة والذي شعر به «كثقل»، هو هذا التصور الأخلاقي المحفوظ منذ الطفولة الأولى من طرف العلاقات بين الآباء - وخصوصاً الأم - والطفل. عبر هذه العلاقات الحميمية في معناها الحقيقي المدمجة في الفرد تنقل الأخلاق أي نسق من معايير السلوكيات المحدد بالسن والجنس والوضعية الزوجية حيث تشكل الأنظمة الغذائية (وبصورة جد ثانوية بالنسبة لجيل المهاجرة) تعبيراً ذا امتياز، لذلك فالمهاجرون الأتراك وباسم

تفوق قيمهم الأخلاقية، يؤكدون عزمهم في أن يبقى أطفالهم أتراكاً يتقوون حين يفرضون عليهم التصور التقليدي للدورين الجنسين واحترام القوانين الغذائية، وبالأخص القانونين اللذين لهما قوة رمزية: عدم استهلاك لحم الخنزير والكحول. تحدثت له عن تركيا، تحدثت له عن الحياة هناك، عن نظام الأكل، لا للحم الخنزير، ولا للحم الفرس ولا للكحول، وأوضحت له عادات الأتراك «ر.ك. ص 150».

إن السوسولوجيا الساذجة تتعري في هذا الظرف واضحة، ويمكن أن يذكر من جهة أن اليهود الذين حافظوا على هوية مميزة عبر عصور تاريخ متزعزع كانوا دائماً يبذلون جهوداً للحفاظ على مقاييس أخلاقية معينة وأنظمة عدائية للحلال⁽²³⁾.

لقد مر شرف الرجل، منذ عصور في الشعوب المتوسطة، التي تشكل أغلبية العمال المهاجرين، من السلوك الجنسي للمرأة المتعلق بأمه أو زوجته أو ابنته أو أخته، بعبارة أخرى أن التنشئة الاجتماعية أحياناً أكثر ودية وأكثر مهارة سياسية تتضمن بشكل

ضروري تعارض مجال الرجل «الخارجي» عن مجال المرأة «الداخلي»، إنه اختلاف في السلوكيات وانقسام في العمل⁽²⁴⁾.

نحن أتراك، لا يمكن أن تكون صداقة بين الفتاة والفتى، يجب أن يعرفا الاختلاف (بين الفرنسيين والأتراك)، لا يجب للفتاة أن تذهب إلى المسبح، لا يجب أن ترتدي زي السباحة «ر.ك. ص 160». أحرم على ابنتي الخروج، وأن تشاهد بعض الأفلام في التلفزة، وأن يكون لها أصدقاء هنا، وأن ترتدي كالفرنسيين؛ بهذا لن تجد مشكلة في تركيا لأنها تربت من خلال ثقافة تركية (ر.ك. ص 171). كذلك أصبحت النساء يحترمن هذه المقاييس حين تربيتهن لبناتهن وأبنائهن مراعاة لأدوارهن التقليدية. أعلمها (ابنتها) لتقوم بالأعمال المنزلية، يجب إعدادها لأسرة طيبة، ليس لها حق في أن تخرج لوحدها بل ترافق بأخيها «ر.ك. ص 150». أما بالنسبة للابن «فيجب أن يكون حراً مثل أبيه» إنه تكون تكويناً تقليدياً، لإدراك الدورين الجنسيين، اللذان من خلالهما يحاول

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

المهاجر إبلاغ أبنائه النواة الصلبة لثقافته الخاصة. إنه من جهة أخرى السبب الذي بموجبه تنكشف الصراعات بين الجنسين، وداخل المجموعة الأسرية كعاملين ومؤشرين ذا امتياز على الصراعات بين الثقافات.

إن ابنة المهاجر الجزائري، حين وصفها لتطور أسرتها في فرنسا، كانت تعي أن التمزيق الأساسي ناتج أساساً عن إعادة النظر هذه للدورين الأسريين. إن الأهم في العائلات الجزائرية، هو الابن، لكن هؤلاء (الأبناء) الآن هم أنفسهم لا يجلبون أو يجلبون أقل من الفتيات، هذا معطى للتفكير⁽²⁵⁾، وبعيداً أكثر يتم استدعاء ما هو معاناة مستمرة للأب:

«إن الأب الذي يحسب نفسه أن (وجوده) ضروري - مادام هناك - ليعيش أطفاله حتى وإن كانوا يعملون، وهذا ما قلناه وأدليناه بحجة وبرهان بأن (وجوده) ليس ضرورياً، وبأننا لسنا في حاجة إليه»⁽²⁶⁾.

عندما يعلو عليهم تماماً، يدوسهم كما تقول، كذلك حين يكونون في الخارج، خارج منازلهم وخارج

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

أنفسهم، لكن حين يكون مع أطفاله أفترض أن هذا لا يطاق⁽²⁷⁾.

إن إعادة النظر في تفوق الأب تكون مؤثرة، لاسيما وأن الفتيات المهاجرات هن أكثر حساسية من بقية أفراد الأسرة لتبني الاستهلاكات الخارجية المتحضرة والذالة على الحداثة (ألبسة، عطور، إلخ) وكذا ولوجهن سوق العمل (بائعات، مستخدمات مؤهلات، بدون احتساب اعدد الضئيل منهن الذي يلج التعليم العالي). إنها التجربة نفسها التي قد عرفتتها المهاجرات الفرنسيات المنحدرات من طبقة الفلاحين، حيث زعزعت إقامتهن في الوسط الحضري النظام الإنتاجي لمجموعة الفلاحين⁽³⁸⁾. عبر إعادة النظر هذه لدور الأب، المحتمل لإعادة تعبير إيفانز بريتشارد بين الجنسين، وكل من التصور والإدراك للواقع الاجتماعي، وكل من النواة الصلبة لنظام ثقافي.

إن الارتباط بالأنظمة الغذائية الذي يظهره كل المهاجرين⁽²⁹⁾، يأتي أيضاً من ذلك الإعداد المطبخي

الذي هو في مجتمعاتنا قسم متمم لدور الأم، فلم يفهم الارتباط الذي يظهره المهاجرون وحتى أبناء المهاجرين الإيطاليين - المشاركين من جهة أخرى كليا في المجتمع الفرنسي - بالنسبة لبعض مظاهر المطبخ الإيطالي إذا تنوسي دور الأم التام عبر التصنيع الاستهلاك الأسري وتقديم المعكرونات أيام العيد، وبشكل معين كل التنظيم للعالم الإيطالي الذي يعبر عن نفسه. إن الأحاسيس الذوقية (التي هي في نفس الوقت لمسية وشمية) الجاهزة طوال الحياة الخاصة للطفولة الأولى، مرغوب فيها أكثر من أحاسيس أخرى، كتعايير مفضلة للعودة إلى الذات، حيث حرم المهاجرين الأتراك بشكل متحمس على أبنائهم استهلاك لحم الخنزير، هذا يؤدي بهم إلى رفض المنادمة والمواكلة العادية (تحریم التردد على مطعم المدرسة أو أن يكونوا مستضافين من طرف الأسر الفرنسية). إنه إذن كل التنظيم الخلقى، الذي هو أيضاً تنظيم اجتماعي للإسلامي التركي، الذي يحاول المهاجرون نقله إلى التقليدية، يرافق حركات مطالبة بالإقليمية أو القومية، من خلالها يبرر المسؤولون

على هذا السلوك بتأكيد الهوية، إن عموم المطبخ والذوق واللاذوق الغذائيين اللذين يمكن بموجبهما أن نرى إحدى أبعاد التنظيم الاجتماعي المميز لثقافتهما وهو نتيجة لهذا النقل من الأم إلى الطفل. «إن مطبخ مجتمع ما هو لغة تترجم عبرها بطريقة غير واعية بنية، بدون معرفة زائدة، ينقاد المطبخ نفسه إلى تعرية تناقضات المجتمع»⁽³⁰⁾ إذا كان يكشف عن «التأملات الأكثر تجريداً للفكر الأسطوري»⁽³¹⁾، فإنه يؤكد على تنظيم العالم الذي يشكل فيه الانقسام حسب الجنس أحد المبادئ. إن تنظيم العالم بالنسبة للمهاجرين هو أولاً تنظيم للسلوكيات حسب التشريع الاجتماعي خصوصاً ذلك المتعلق بالنساء، وذلك المتعلق بالفتيات الذي يجب أن يحفظ فيه الشرف من طرف الأسرة حتى زواجهن، ثم ذلك المتعلق بالأم «رباط الأسرة» حسب المثال الإيطالي إن وضعية الهجرة، بتقليصها للحياة الاجتماعية الخارجية للأسرة تقوي الروابط التي توحد الأم مع أطفالها، في وضعية تعتبر الخارج أجنبياً ومن هنا التهديد، يمكن أن نرى أن العلاقة المقامة بين الأم وأبنائها تنقل

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

مجموع المعايير الواضحة في شكل أحكام خلقية وتذكيرات فعالة تقريباً. يساهم الإسلام في حالة العمال الأتراك بنظام شرح وتعليل على نقل المعايير السلوكية المناسبة مع المجتمع الأصلي.

ليس صدفة، إذا استشهد عالم نفساني بحالة أحد مرضاه وهو عامل جزائري الذي عرف اضطراباً عقلياً بعد أكثر من عشرين سنة من الحضور والعمل بفرنسا بدون مشكلة التبني واضحة بين نشاط مهني متصل وحياة عائلية هادئة. وفي هذا الإطار يمكن معاينة الحالة التي مر منها أطفاله البالغين - الحالة المادية بالنسبة للدراسة والنشاط المهني لبنائه (عكس التصور التقليدي)، والخدمة العسكرية لأبنائه الذكور (رمزاً على فرنسيتهم) والتمام الزواج بالنسبة لهؤلاء وأولئك باستقلال عن المبادئ التي تفرضها التقاليد المؤسسة على التراضي بين عائلتين وليس حربة الاختيار بين شخصين - تأخذ بالأساس «النواة الصلبة» الثقافية كما أسستها التنشئة الاجتماعية للطفولة الأولى في المجتمع الجزائري قبل الهجرة⁽³²⁾.

إن التمييز بين النواة ومحيط نسق ثقافي ليس معطى كلاً، بل يتعلق بالثقافات الأصلية والظروف التاريخية التي تؤدي بالمجموعة إلى أخذ الوعي بنفسها وبالتالي بحدودها. كذلك يمكن ألا يكون العمل أو المشاركة في الإنتاج مرتبطاً مباشرة بتصوير الدورين الجنسين والأسريين الذي يبيح كما هو الشأن بالنسبة للمهاجرين الإيطاليين والأتراك انقساماً بين الحياة العملية والحياة الأسرية حيث يوجد فيهما التصور التقليدي محفوظاً بالأساس. وإن الرابط عند بعض المجموعات بين الاثنين يكون محصوراً أكثر، بحيث إن الفرد يرفض تغيير حياة العمل التي هي ألصق بالدورين الجنسين على ضوء هذه العلاقات الاجتماعية، حلل ستيف إيران الزحف الكبير الفلاحي البور نحو الشمال الرافضين العمل في المناجم والمعامل الصناعية التي أدخلها المعمرون الإنجليز، حيث فضل البوريون أن يهجروا جميع غلتهم للحفاظ على الذي ليس نشاطاً مهنيّاً فقط (العمل الأرضي) ولا لهجة (الأفريقانية) بل للحفاظ على هوية، أي تصور للدورين الجنسين، والخلق وإدراك حسي للعالم، المعبر

عنهما في العمل في الأرض المرتبط بشكل الحياة
الأسرية⁽³³⁾.

ينزع المجتمع الصناعي في ذاته إلى الفصل
وبأكبر عدد مكان الإنتاج عن مكان الممكن، وفصل
الحياة الخاصة عن حياة العمل في الحدود التي يبيح
فيها (ويشجع أحياناً) فصل تصور الدورين الجنسيين
عن النشاط المهني (بالنسبة للبورين إن هذا الفصل
نفسه هو الذي يشكل موضوع الصراع). يفهم على
أن الهجرة من العالم القروي إلى العالم الصناعي
المتحضر هي سبب هذا الصراع الحاد (وهو أكثر حدة
بالنسبة لمسؤول عن استثمار فلاح من النسبة
للعمال المزارعين)، بحيث تفرض هذه الهجرة قطيعة
في النظام الرمزي الذي يقابل عالم المرأة الداخلي
بعالم الرجل الخارجي ويقطع تلك الصيرورة
«الطبيعية» التي أسست في العالم القروي بين
الانقسام الجنسي وتقسيم العمل.

وبالمقابل يمثل المرور من بلد إلى آخر، بالنسبة
لبعض موجات المهاجرة، صراعاً قابلاً للتبادل بشكل

أفضل حين كان الفصل بين مكان العمل على سبيل المثال ومكان السكن (مع كل ما يستتبعه هذا الفصل في التنظيم الأسري) أمراً مقررأً قبل الهجرة. وفي بعض الحالات تكون أول هجرة قد أدت إلى تكوين سكان مسوا بأشكال الحياة «الحديثة»⁽³⁴⁾، وهذه الهجرة هي من قرية نحو المدينة في بلد (المهاجرين) الأصلي، وفي حالات أخرى يخلق المهاجرون في مجتمع المهاجرة عالماً أو وحدة إنتاج يعيد جزئياً أو كلياً الوحدة الأسرية، كما هو الحال بالنسبة للمشروعات الصغيرة في الدروب الضيقة في باريس، التي أنشأها المهاجرون اليهود من أصل أوروبا الوسطى في ما بين الحربين وأنشأها الأتراك منذ سنة 1970.

يتكون أغلبية السكان المهاجرين في فرنسا منذ الحرب العالمية الثانية، إما من سكان متوسطين (إيطاليين وإسبانيين وبرتغاليين ويوغوسلافيين أو تركيين)، حيث أن تصورهم للعمل كان قريباً بما فيه الكفاية من تصور مجتمع الهجرة له، إذ يمكن أن يتم

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

الثقاف في العمل بمختلف أبعاده - تقرير في الوقت وفي الرتبة أقل كفاية تقنية - دون أن يؤدي إلى إعادة النظر في الهوية، وإما لتتكون هذه الأغلبية من سكان عرفوا من خلال الوضعية الاستعمارية أول فرصة للثقاف، لذلك منح الثقاف المحيطي والحفاظ على النواة الصلبة الثقافية للمهاجرين تبني جزئي لمتطلبات المجتمع الفرنسي. يعرف على سبيل المثال في حالة الهنود الأمريكيين أن تصورهم المختلف للعمل يبقى في هذه النقطة مرتبطاً بالهوية الممتزجة فيهم منذ الطفولة الأولى بحيث إن هؤلاء السكان، الذين فرض عليهم العمل على الطريقة الغربية، فضلوا الموت على أن يخضعوا لهذه الطريقة.

الهوامش

D. Schnapper: Recherches sur les migrations internationales, (*
.1982, 4/5, Paris CNRS

1) الشكل الأكثر تجهيزاً والأكثر شهرة هو ذاك الذي نشره: W.W. Rostow dans the stages of economic Geowth: a Non-Communist manifesto, Cambridge Univ. Press, 1961

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

(2) عمل معاد لا يتراجع أمام استعمال استفتاء يستجوب فيه الفلاح الأناضولي حول علاقته بوسائل الإعلام ومع العالم السياسي في شكل « إذا كنتم رئيساً للولايات المتحدة... » ك.ل. ليرنر. CI. D. Lerner, the Passing odtraditional Society, Modernizing the Middile East, Glencoe, the Free, 1958.

(3) حول مجموع هذا الأدب، انظر ج. جولدثورب. J. Goldthorpe, "theiores of Industrial Societies", Archives européennes de Sociologie, vol. XII, 1971, n° 2, p. 263-288, ainsi que S.N. Eisenstadt. Tradition, change and Modernity, New York, Wiley, 1973.

(4) S.N. Eisenstadt, op cit, 262. Voir aussi la bibliographie sur ce thème p. 112-114.

(5) P. Maugué, contre l'Etat-nation, Denoë, 1979, p. 179.

(6) G. Michaud, ed, Identités collectives et من هذه التعابير أخذت من relations culturells, Bruxelles,. Complexe, 1978, p. 179.

(7) الأكثر شهرة من هذه الكتب هو كتاب: Glazer et D. Moynihan (eds), Ethnicity, Theory and Experiences, Cambridge (Mass). .haverard unerversity press. 1975.

(8) مصطلحات المهاجرين أو المغتربين في هذه النصوص تعني أناساً ولدوا أو تربوا في بلاد أخرى وأقاموا في فرنسا وأطفالهم يسمون خلافاً للأصول مهاجرين من الجيل الثاني (بحيث أنهم ليسوا مهاجرين) تربوا بفرنسا. سنتحدث عن أبناء المهاجرين.

(9) أمكننا توضيح أن نفس سلوك الهجرة الجزائرية نحو فرنسا يمكن أن يعني حسب مراحل التاريخ الاجتماعي للجزائر، شكل احترام للتقاليد أو إشارة إلى قطيعة مع هذه التقاليد كأول مرحلة مشروع التحديث "A. Sayad, les trois âges de l'émigration algirienne" Actes de la recherche en sciences sociales, n° 15, 1977. p. 59-79.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

10) M. Tripier, "Travailleurs immigrés: pour l'analyse des générations migration" les communautés pertinentes de l'action collective, CNAM, 1981, p. 5-19.

11) من المسلم به أن هذا التمييز نموذج مثالي وأن كثيراً من الباحثين أجهدوا أنفسهم للتوفيق بين وجهات النظر هذه، على الخصوص وجهة النظر الثانية والثالثة.

12) لا نعثر هنا على تحليل لتركيب ثقافي مثل في نصوص أخرى:

D. Schnapper, "Centralisme et fédéralisme culturelle: les émigrés italiens en Grance et Etats-unis", Annales ESC, Octobre 1974. p. 1141-1159. et "tradition culturelle et appartenance sociale: émigrés italiens et migrants Français dans la région parisienne", Revue française de sociologie de 1976 p. 485-489 les analyses concernant les travailleurs turcs reposnt particulièrement sur les informations fourmies par deux enquêtes: R. Kastrano, Espaces et Migrations, Influence de l'organisation sociale des familles immigrées truques sur la socialisation des enfants. Paris thèse de doctorat de III cycle de l'EHESS, 1983. et M. Cetinsoy, "les turcs à Stuttgart évolution et adaptation d'une communauté étrangère dans une grande ahhlomération allemande", Greco 13. Recherche sur les migration internationaaales, 1982, 4/5, Paris, CNRS.

13) Sayad A., "la naturalisation, ses conditions sociales et sa signification chez les immigrés algériens" Greco13, Recherche sur les migration internationaaales, 1982, 4/5, Paris, CNRS.

14) F. Alberoni et G. Baglioni, 'integrazione dell'immigrato nella società industriale, Bologne, II Mulinom 1965.

15) كشفت الإحصاءات في 1975 أن مجموع نشاط المهاجرات يصل إلى

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

37,1٪ (بالمقابل 50٪ للنساء الفرنسيات) لكن يجب الأخذ بعين الاعتبار طبعاً أهمية النشاط المنزلي (بما في ذلك رعاية الأطفال وأعمال الخياطة) غير المصرح به. تبقى النسبة النشيطة للمغاربة مع ذلك متحفظة أكثر من نسبة البرتغاليين أو الأسبانيين.

16) O. Paterson, "The Black Community: Is there a Future?" in seymour Martin Lipset (ed). The third Century, America as a post-industrial Society. Hoover Institution press, 1979. p. 269-270.

17) J. Barou, "L'insertion urbaine des étrangers dans une ville moyenne", Greco 13, Recherches sur les migrations Internationales, 1982, 2, p. 16-28.

18) سنجد تحليلاً لعلاقة الإيطاليين ببناء المنزل في د. شنبر تقاليد ثقافية، مقال مذكور، ص، 480.

19) C. Breteele Et C. Vallier-Boisvert, "Portugues Immigrants In France: Familial and Social Networks and the structuring of Community", Studi emigrazione. n° 46, juin 1977.

20) D. Schnapper, "centralisme...", art. Cit, p. 1150.

21) B. Lewis, History Remembered, Rediscovered. Invented princeton University press, 1975, p. 38.

22) صنف كذلك أ. س. بلاك تركيا وروسيا، واليابان، والصين وإيران وأفغانستان وأثيوبيا وتايلاند كتجسيد لوجهة النظر السياسية، كنوع معين من التحديث.

23) د. شنبر «المركزية...» م.م. ص 1159.

24) مصطلح ترميق ثقافي يبدو لي أفضل من مصطلح تهجين ثقافي المستعمل دائماً، لأنه أكثر تخصيصاً: كل ثقافة هي نتيجة تهجين ثقافي.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

25) هذه التحاليل تقوم على أعمال كلود دولوناي المخصصة لمشاكل هويات أطفال الحركيين (بحث في طريق) وحول قراءة دبلوم الدراسات لمحمد حامومو.

26) أول صراع قوي تفجر في 1967 في مسكن بشارع شارون، حين كشف المسلمون **الأفارقة** أن الدجاج كان يقتل بالكهرباء بدل من أن يذبح على نحو شعائري.

27) J. Pitt-Rivers, Anthropologie de l'honneur, la mésaventure de Sichem, Paris. Sycomore, 1983 (I éd. En langue anglaise 1977).

28) Sayad A., "les enfants illigittimes", Actes de la recherche en sciences sociales, n° 26/26, mars-avril 1979, p. 122.

29) Ibid. n° 25. p. 80.

30) Ibid. p. 75.

31) P. Bourdieu, "Célibat et condition paysanne", Etudes rurales, n°0 5/6, avril-sept, 1962, p. 32-136.

32) انظر د. شنير «المركزية... م.م. ص 1151.

33) CI. Lévi- Struss: l'Origine des manières de table, Plon, 1967. P. 411. Voir aussi Mary Douglas. De la souillure, Maspero; 1971 (purity and Danger, Londres, Rouledge and kegan, 1967).

34) De la souillure, op. Cit. p. 13.

* * *

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

ملاحظات حول الترجمة

هنري غيفورد

Henry Gifford

ترجمة فؤاد عبدالمطلب

لقد ذكرت في السابق شيئاً ما عن خصوصية اللغة، ولاحظت أن الدارس للأدب الأجنبي مهما كان متفهماً، فإنه سيلاقي في نهاية الزمر العتبة التي يجب أن يتوقف عندها. ونسب ماتشادو إلى شاعره المتخيّل ومعلمه ميرينا الرأي القائل أنه لا يمكن لأكثر من لغة واحدة (اللغة التي نعيش ونفكر بها) أن

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

تكون حية تماماً بالنسبة لنا. يجب أن نرضي أنفسنا
بمعرفة شكلية وأدبية للغات أخرى. وتأمل الترجمة أن
تجاهل تلك العتبة وأن تجعل من نفسها ساكناً من
سكان الثقافة الأجنبية - لكن هذا الأمل وهمي.
وعندما تُستخدم اللغة للتعبير عن حقائق المخيلة،
سواء في الشعر أو في النثر، سينغرس العمل الناتج
بصورة راسخة تماماً في العنصر غير القابل للترجمة.
إن الكلمات المشحونة بالمعنى لا يمكن استبدالها، لأن
المضامين التي تحتويها دقيقة جداً، والمعنى الأبعد
يكون مخفياً في ثناياها - ومن خلال حركات التواتر
والحركة الدرامية، والتأكيد الذي يأتي من أي تغيير
شاذ في مواضع. وتستطيع الأذن المحلية أيضاً أن
تكتشف النغمات التي يمكن أن تصدرها كلمة واحدة.
وقد كتب دانتي في النشيد الخامس من قصيدة
«الفردوس» عن معنى العهد:

ولا يلغي أبداً هذا الأساس الأخير

إذا لم تتم مراعاته

(47-46)

- ويمكن إغاؤه فقط بحفظه - وكما لاحظ
كوزمو فإن لاتينية الكلمة (servato) تهدف إلى إعطاء
تعبير أكثر حيوية للصفة الرومانية للفكرة. وقد بين
آ.س أورلوف كيف أن الكلمة (sushchiy) التي هي
اسم الفاعل من فعل الكون في اللغة الروسية،
تكتسب نغمات مختلفة في مثالين مأخوذتين من
بوشكين. ففي المثال الأول من مسرحية «بوريس
غودانوف»، يوافق رئيس دير الرهبان بأن ادعاء
المدعي هو بدعة ويكرر العبارة «هرطقة كائنة»، حيث
تحمل الكلمة هنا طابعاً قديماً وكنسياً فكأنه يجب أن
يقول «هرطقة ثابتة». وفي المثال الثاني فإن أبياتاً
من شعر بوشكين على تمثاله تُعلن: «إن كل لسان
موجود هناك (في كل مكان من روسيا) سيذكر
اسمي». وهنا يكون تأثير كلمة (sushchiy) هاماً
وجليلاً.

إن العمل المترجم لا يمكن أن يكون إلا مثل لوحة
زيت أعيد إخراجها بالأبيض والأسود. النسيج قد
تغير. وطبعاً لن تكون التسوية الواسعة للكتل

والسطوح أقل وضوحاً، وربما حتى الفوارق الدقيقة جداً لا تضيع. وعلى كل حال، لقد حل محل الانسجام الأولي شيء آخر أقل منه دقة. وعندما تعمل المخيلة بكامل طاقتها - سواء في القصيدة الغنائية أو المسرحية أو الرواية - فإنها تنظم المادة بدرجة من الدقة والشمولية بحيث لا تستطيع أي ترجمة أن تضاهيها أبداً. إن وحدة العمل الكامل تضم جمعاً من التفاصيل المتقاربة. فمصيورها أن تُستنفد بالترجمة ولكن إلى أي مدى، يظل معتمداً على الشكل سواء أكان العمل نشراً أم شعراً، وعلى ما إذا كان شعراً قصيراً وغنائياً أو روائياً طويلاً.

وحتى أشد الأعمال تدقيقاً في ترجمة عمل أجنبي سيميل إلى تشويه العمل الأصلي. وقد حذر أرنولد المترجم من «غشاوة الأساليب الغريبة في التفكير والكلام والشعور والتي تحول بينه وبين الأصل». (أرنولد، عام 1860، ص 103) ومهما تكن رؤية المترجم للنص الأصلي واضحة فإنه لا بد أن يخضع لضغوط لغته الخاصة. إن هذه الضغوط

تستولي على العمل كله بموافقة المترجم أو بدونها. ويمكننا أن نرى ذلك بصورة ساطعة في ترجمتي أندريه جيد لمسرحية «هاملت» ومسرحية «أنطونيو وكليوباترا». وكان جيد يفهم تماماً مخاطر ترجمة أعمال شكسبير، والتشويه الذي يمكن أن ينجم عنها. ومع ذلك حاول بكل ذكائه - دون أن تعيقه صيغة الشعر، وكان هناك كذلك نشر فرنسي لا يمكن ترجمته إلاً بصعوبة. فقام بترجمة شكسبير مبدلاً نعمة بنعمة وروحاً بروح. وهنا فإن عدم التوافقات بين العبقريّة الفرنسيّة والإنكليزيّة أدت إلى فشله؛ لكن كل مترجم، مهما كان تعاطفه مع النصّ الأصل، فإنه يستعيز عنه بذكاء وعفوية بنص آخر يمكن أن يندرج ضمن نظام أدبه الخاص.

وينبغي أن نعلم هنا حدود إدراكنا. وغالباً ما يُصدم القارئ الإنكليزي مثلاً لعدم التمييز (هكذا يبدو له) الذي يُظهره الأجنبي الذي يُعظم بايرون، ووايلد أكثر من بقية مؤلفينا في القرن التاسع عشر، أو الذي يتحول بلطف من قراءة كيتس إلى سوينبرن.

إن الأخطاء ستكون فادحة تماماً إذا شرحنا الأمور انطلاقاً من حقيقة أن بايرون ووايلد (حسب عبارة أورتيجا) لديهما أشياء أقل يتركناها عند الحدود، وأن لدى سموينبرن أشياء مشتركة ربما مع هوغو أكثر منه مع كيتس. وقد يكون إليوت مُحققاً بتأكيده أن الشعر الجيد يمكن أن يُميزه حتى أولئك الذين ليس لديهم خبرة في اللغة نفسها، حيث أنه يمكن أن يتواصلوا معه قبل أن يكون مفهوماً (إليوت، عام 1965، ص 8). إن هذه الملكة على السمو بما هو شعر عما هو ليس بشعر لا تعتمد إطلاقاً على فقه اللغة، مع أنه بإمكان فقه اللغة أن يعززها. ويجب أن نعتبر هذه الملكة موهبة غير عادية، ومتوفرة للشعراء بصورة رئيسية، مع أنها ليست تلك الملكة التي هي دائماً رهن أوامرهم. إن القارئ الذي يتعلم الحكم على الشعر كما يتعلم معظمنا ذلك، عن طريق تعليم ذاتي مضمّن فيه لحظات التبصر قليلة ومشتتة، لن يؤدي إلى تشكل أية أوهام عن استجابته للشعر الأجنبي. ولن يستطيع أن يأمل أنه سيصل إلى امتلاك سرعة الشعور في أكثر من لغة أو لغتين ليستوعب لماذا

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

يقال الشيء بهذه الطريقة أو تلك، أو ما الشيء الذي يشكل المرأة الشعرية. وكلما كانت معرفته للغة حميمة أكثر اقترب أكثر في تقديره للتعابير اللبقة عند كاتب أجنبي. ويمكن أن تكون هناك غريزة مسعفة تساعد في هذه الأمور، فأولئك الذين لديهم حس أدبي، والذي يشبه أي حس آخر يتحسن عن طريق الممارسة، سيتألفون سريعاً مع حدود لغة ما بأشكالها العادية، واتجاهاتها، وهكذا فإنهم سيترون أنفسهم تسترشد بها كمن يتعلم رقصة جديدة. ولكن يجب علينا ألا نفترض أنه بإمكاننا أن نسجل اهتزازات العبارات كلها في آذاننا حتى لو كان مصدرها أقرب المقربين إلينا.

ويتطلب الشعر الانتباه الأشد والتواضع الأكثر لدي القارئ الأجنبي. لكن الحالة ليست مختلفة كلياً بالنسبة للروايات. ويمكن تتبع الشكل الروائي سواء كان شعراً أو نثراً، خطوة خطوة من خلال ترجمة جيدة. إنه يفقد قليلاً من تركيبه وبالتالي قليلاً من معناه الأساسي - إذا كان الإيقاع العام والتناسبات منتظمة. لقد استجاب آلاف القراء بالإضافة إلى

الروس لرواية «أنا كارنينا» أو «الجريمة والعقاب». إنهم غالباً ما يتأثرون بها بعمق أكثر مما ينفعلون في قراءة أغلب الروايات المكتوبة بلغتهم هم. ويتردد المرء في إبداء اقتراح أن قراءة هذه الروايات دون معرفة باللغة الروسية ستكون قراءة ناقصة. ومع ذلك فإن الرواية مترجمة وقد ابتعدت عن المكان الذي تنتمي إليه، ضمن فترة محددة من الثقافة الروسية. وبذلك يكون رصيد كامل من التلميح قد تشتت، وتصبح الأصوات أضعف وأقل نبرة. ولا تكاد تصل إلينا الفروقات في مفردات المؤلف، وحيله الخاصة في تأكيد أسلوبه الذي يتخيل كل ذلك. إننا ملزمون أن نستنتج من قصة «أنا كارنينا» جدية تولستوي، لكن الترجمة تخفي الخشونة المقصودة في أسلوبه عندما يحاول تدوين الانطباعات حال حدوثها. إن التحفز والوعي المشدود لدى دوستويفسكي يقفزان من أية صفحة في الرواية حتى في الترجمة، لكن دهاء الروسي الخاص وكذلك السخرية والذكاء الغامض لصوت الراوي لا تفعل ذلك. مرة ثانية كيف يمكن لأي ترجمة أن تنصف كل ما هو إنكليزي تحديداً لدى

جين أوستن - في تحفظاتها ولباقاتها التي لا تحصى، وهدوء تقييماتها، والنور الواضح والمستمر الذي تعيش فيه، ودقتها في التعبير التي لا تقل من الناحية الاجتماعية عن قيمتها من الناحية الفكرية - مستندة إلى سلطة كاملة من الاستثناءات؟ إن الرواية التي تُفهم على نحو تخيلي ستستخدم اللغة بشكلها الطبيعي وستبرز الجانب الأفقر في الترجمة. فتكون الصعوبات بسيطة - كما هي الحال مع تريمالشيوف في الرواية التي كتبها بيترونييس أو قصص زوشيشنكو - فإن نبرة الراوي تحدد الزاوية التي يجب أن تُعالج القصة عندها. إن فقدان نبرة صوته، وابتعاد ما لديه عنه دون وعي، تجعل القارئ يفقد دقة معينة في نقده الضمني. وسيبدو هذا حقيقياً في كل رواية جديدة، يُظهر المؤلف مهما كان حذراً، ربما ليس بأكثر من وضعه ظرف زمان أو مكان أو تكرار تهكمي لاسم مجرد، بأنه هو أيضاً يراقب ما يجري.

ستكون الدراسة المقارنة في أحسن حالاتها عندما ينتقل ناقد مثل إدموند ويلسون بسهولة من لغة إلى أخرى. لكن عدداً قليلاً من الناس يملكون هذه

الكفاءة (وإذا كانت في أيدي غير مؤهلة ستكون خطرة). وأنا أشك إذا كان بالإمكان إنجاز الكثير من هذه الدراسة بدون شرط أرنولد الذي يقول إن « كل ناقد يجب أن يحاول امتلاك أدب عظيم واحد على الأقل، بالإضافة إلى أدبه الخاص به، وكلما كان هذا الأدب بعيداً عن أدبه، كان أفضل». (أرنولد، عام 1865، ص 39). فمع أديبين أو ثلاثة تحت تصرف الناقد، ومن الضروري أن يكون أدبه بينها، يمكن للناقد أن يأمل برؤية النسق العام وأن يكتشف علاقات متنوعة. ولكن لإتمام البحث والاستقصاء لا بد له بالتأكيد أن يعتمد على الترجمات عند نقطة معينة. وهذه الترجمات يمكنها أن تساعد في التحرك على الهامش، كما إنها تسمح باستخراج نتائج أولية؛ فهي تؤكد أحياناً على عنصر واحد أو ربما الشخصية الكاملة للعمل الرئيسي الذي يدرسه الناقد. ولدى أوروبا وحدها آداباً عديدة، ولا يمكن إهمال أيٍّ منها، لذلك يجب استدعاء الترجمة لتخوض فيها.

ما الشيء الذي نحن مخوّلون أن نطلبه من المترجم؟ وما هي حدود الإمكانية التي تحد من فنه؟

إن القانون الأول للترجمة واضح: لا شيء يمكن أن يعتبر نهائياً. إن كل عصر يصور الأدب عبر موشور اهتماماته الخاصة. وهذه الاهتمامات تتغير بشكل متوافق مع التبدلات التي تحدث في التاريخ الإنساني. ولعل من طبيعة العمل الكلاسيكي أن يقدم مظاهر جديدة في موقف جديد. وسيشرح هذا وحده تراجع الكتابة النقدية التي يخلفها وراءه أي عمل هام في تقدمه عبر الزمن، ومهما تكن الترجمة مؤثرة فهي لا تستطيع في الحقيقة أن تمتد زماناً ومكاناً مع الأصل. إنهما ليسا الشيء نفسه تماماً، فدرجات التأكيد ستكون مختلفة فيهما، والترجمة تنتمي إلى تيار مختلف في الأدب العالمي، وإن التقاء اتجاهين كبيرين سيؤدي إلى خلق تيارات متقاطعة ودوامات غير مرئية وانحيازات خفية. ولا يستطيع القارئ المعاصر أن يشك بأن ترجمة شلغيل وتيك لأعمال شكسبير بكل ميزاتها العالية تنتمي لعصر غوته. فقد شوهدت شكسبير دون قصد منها تماماً، وهكذا أصبح شكسبير مواطناً فخرياً من ويمار، وجرت العملية بتعقل غريب، ونبرة هادئة كثيراً،

ووضوح عظيم. ويمكن أن يسمى ذلك اقتباساً رائعاً لشكسبير مناسباً للفهم الألماني في زمان محدد، لكن الناقد الألماني الذي يكتب عن شكسبير عليه أن يستبعد الصورة التي ابتدعها شلغيل وتيك إذا كان يبحث عن شكسبير الحقيقي. وهكذا هي الحال أيضاً مع الكتاب المقدس (الإنجيل) الإنكليزي. إن النسخة «الموثقة» هي ترجمة رائعة ولا بديل لها وموسومة كلها بميزات مرحلة خاصة من مراحل الكنيسة الإنجليكانية. فقد ان الكتاب المقدس الإنكليزي الجديد يهدف إلى إبعاد كل ترابط مع تلك الحقبة، وإعادة الجدة ونضارة العامية الملحة التي كانت تملكها اللغة الإغريقية في الأصل والخاصة بالعهد الجديد. وقد كره معظم النقاد الأسلوب غير المتقن والركيك للإنجيل الإنكليزي الجديد، ولكن إلى أي مدى يمكن الاعتماد على ترجمة «النسخة الموثقة»؟ وهذه الترجمة، بوصفها الكتاب المقدس الإنكليزي منذ قرون، اخترقت حياتنا القومية وتزودت بألف صيغة تقديس واحترام عبر الزمن. ويجب أن يتذكر القارئ المتأنى أنه يتعامل مع الكتاب المقدس الإنكليزي

(الإنجيل) فقط، ولا يملك أي مسوغ ليتكلم عن العهد الجديد في اللغة الإغريقية أوفي لغة القديس جيروم اللاتينية.

ويمكن أن يكون للترجمة ادعاءات غير اعتيادية من أجل البقاء. لقد سمى باوند ترجمة كتاب أوفيد «تحويلات» والتي قام بها غولدينغ: «الكتاب الأكثر جمالاً في اللغة الإنكليزية». واعتقد جونسون أن «إلياذة» بوب هي «أكثر ترجمات الشعر نبلاً في العالم على الإطلاق». وما من واحدة من هاتين الترحمتين تقرأ كثيراً هذه الأيام. ومع ذلك فإن المرء يحيل أولئك الذين لا يستطيعون قراءة الأصول إلي ترجمات من ذلك النوع. ويبقى غولدنغ إليزابيثيا وبوب أوغسطيا ولكنهما كانا مثل قلة من المترجمين - شعراء حقيقيين، وإنه لمن الممكن دائماً تمييز مبالغاتهم وعيوبهم من خلال ترجمة نثرية دقيقة قام بها مرجع ترجمي حديث. فهم يمنحون حس الاكتشاف الذي تشترك فيه ترجمة الشاعر مع أصلها. فالترجمة الجيدة يجب أن تؤثر حتى وإن تم تخفيف درجة الشدة

فيها. والاحتمال هو أن يحرز الشاعر نصراً كبيراً مهما كانت هناك أخطاء عرضية يمكن أن يرتكبها مسايرة لعصره. ويجب أن يدرك الشيء الذي به تستطيع أي قصيدة أن تثبت حيويتها سواء كانت قصصية، أو مسرحية أو غنائية - أي الحركة الداعمة. لقد ابتعدت ترجمة بوب لهوميروس عن الأصل بمائة طريقة وربما كان بإمكانه أن يترجم بشكل أفضل بكثير عن أوفيد. هذا غالباً ما يشعر به المرء، ومع ذلك فقد كان على أرنولد أن يسلم بأن بوب ترجم بسرعة ليضاهي سرعة نص هوميروس. ولدينا هنا نوعان مختلفان من السرعة، ولكن بوب حسب رأي أرنولد اقترب كثيراً بترجمته من ترجمة «الحرفي النشط» كوير الذي أبطأ ترجمته للإلياذة إلى ببطء إيقاع «الفردوس المفقود»، فأفسد كل شيء. ويصر أرنولد على أن التأثير الخاص للشاعر يكمن في أسلوبه وفي حركته لا في كلماته المأخوذة بشكل منفصل (أرنولد، عام 1960، ص 150). وارتكب بوب خطأ بحق أسلوب هوميروس فجعله مصقولاً أكثر من

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

اللازم، لكن الخطيئة ضد الحركة ليست فقط خطرة جداً بل هي قاتلة أيضاً.

وتبرز الصعوبة نفسها في ترجمة الرواية. فقد كان بروسن محظوظاً في أن يكون سكوت مونكريف مترجماً له مع أنه عبث بعنوان عمله «البحث عن الزمن المفقود» فترجمه «ذكرى أشياء قديمة». ضمّن مونكري في ترجمته إيقاعات بروسن البطيئة السائبة التي تكشف الفكر المنتبه إلى أقل تلميح في أثناء تجميعه لبينات تتعلق ببيان وضع معقد على الفهم. أما مترجم فلوبيير فعليه أن يصغي بحدة: فهناك آثار أصوات مرهفة. هناك آثار أصوات واضحة في وصفه لأشياء مدركة بالحس. لكنه أيضاً مميّز جداً بالنسبة لوقوع عباراته عند التعامل مع العالم الأخلاقي:

كانت لديها الرغبة في أن تكون بين وصيفات السيدة العذراء. ردعتها السيدة أوبان عن ذلك.

وانبثق حدث كبير: هو زواج بول.

(القلب البسيط)

الإيقاعات المسهبة ليست محبذة كثيراً في

عصرنا. ويريد المترجم أن يكسرهما ليهرب من عالم كلاريندون وسانت سيمون إلى عالم كبلنغ وهمنغواي. لكن النشر الإبداعي الجيد لا يمكن أن يستغني عن آثار الإيقاع المنظم ضمن الفقرة (كما هي منظمة فعلاً بوضوح من قبل هيمنغواي أيضاً). إذا انكسر الإيقاع فلا حضور للمؤلف بعدئذ.

يجب أن نطلب من الترجمة أن تعير اهتماماً للحركة ومن ثم للكثافة في النص الأصل. فرواية «الدكتور زيفاغو»، على سبيل المثال، على الرغم من أنها مقروءة جداً في ترجمة ماكس هيوارد ومانيا هاراري فيها سرعة إلى حد ما في إيقاعها، فبين الحين والآخر يحاول المترجم أن يلطفاً من تفاصيل جمل باسترنك الأكثر تعبيراً. وعن هذا الطريق يتم إسقاط أدنى درجات الكثافة وتبسط التجربة هنا وهناك. وتمحي بعض الصلات الأكثر رقة. ويجب علي المترجم قدر الإمكان أن يعيد الانطباعات إلي نظامها وترتيبها الأصلي، حتى ولو تطلب منه ذلك أن يحمل التراكيب الإنكليزية أكثر مما يحتمل. ويشعر الكثير من مترجمي الشعر بفرغ مربع من تبديل الصيغة

الإيقاعية للقصيدة. فهم لا يدركون أنه يمكن أن ينتج عن ذلك عدم إخلاص بالغ للأصل. إن كل قصيدة تفصح عن تجربة عبر منحني خاص من الانطباع والشعور، ويتم التعبير عن ذلك بحيث أن كل تفصيل يسبق الآخر. وهذا يفرض الإيقاع الأساسي، معبراً عنه بقالب عروضي خاص. لكن القالب نفسه في لغة أخرى يمكن أن يبطل بسهولة ذلك الإيقاع. إن المهمة الأولى للمترجم يجب أن تكون بمتابعة الحركة الضرورية في قصيدة ما، التي هي المقرر الداخلي لشكلها، وألا يجعلها تنفصل عن ذلك.

تكون الترجمة في أسعد حالاتها عندما تظهر علاقة حقيقية بالأصل، وتشابهه في الميول أو حتى رابط شخصي. والترجمة هنا تتجاوز التقليد، فالشكل هو الذي يسمح للشاعر في زمن أو بلد مختلف أن يعيد صياغة الأصل، بحيث يصلح لمناسبة جديدة. لقد انجذب بوب نحو هوراس أو جونسون نحو جوفينال لأن كلاهما أحس أن الشاعر الروماني قد حدد بشكل جيد ما يمكن قوله مرة أخرى. لقد رأى كل منهما الشبه بين العالمين القديم والحديث، كما

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

وجد في هوراس أو جوفنال موقفاً مناسباً لهما - رغم أن بوب يتميز بأشياء مشتركة مع هوراس أكثر من جونسون مع جوفينال - وهكذا كانا قادرين على أن يعزفا لحناً قريباً من العمل الأصلي. إن نوع محاكتهما يفترض أن القارئ سيبقي القصيدة الأولى تحت ناظريه حين تقويمه لنظيرتها الحديثة. فلن يغيب عنه نظرة المقارنة الساخرة في قصيدة بوب: «رسالة إلى أغسطس» بين نصير هوراس وراعيه والملك جورج الثاني الذي لا يحب الفنون.

أوه لو أستطيع التحليق على جناح ميونيان.

ذراعاك، أعمالك، وراحتك عند الغناء!

... لكن الشعر، للأسف، جلالتك تترفع عنه

وأنا لست معتاداً علي تكلف المديح

(القسم الثاني، أبيات 394-395، 304-405)

لا تعتمد كل المحاكاة الترجيحية - إلى هذا الحد علي الحضور الظلالي لأصولها. وعندما تبني روبرت لويل في أيامنا هذه، أو إنكونتي أنينسكي بضعة

عقود قبله، قصائد أجنبية وعملوا بها انطلاقاً من أهدافهم هم، فكان ما أنجزوه أشعاراً جديدة ومستقلة كلياً. وسيكون هناك عدد قليل جداً من القراء في موقع المقارنة بين تقليدات لوليل مع الأصول: وكان يختار نماذج من اللاتينية والإغريقية والفرنسية والإيطالية والألمانية والروسية. المحاكاة التي أجراها أنينسكي نشرت ضمن قصائده الخاصة، ويجب أن تعتبر كأنها استمرار لها، كانت استملاكات أكثر منها محاكاة. فنادرًا ما حاول أن يستحضر الخلفية الأجنبية. كانت هذه القصائد تشبه كاتدرائيات موسكو - كما رآها ماندلشتام - ذات تصميم أجنبي، لكن «باسم روسي وفي معطف من الفرو».

إذا اعتمدت الترجمة الوحيدة الناجحة على هذا التعاطف النادر بين شاعرين، فإن حجمها سيكون صغيراً إلى حد ما. ويمكن «للمترجم العام» مثل فيليمون هولاند الإليزابيثي - أن يتعهد سلسلة من الأعمال النثرية التي لها نفس الشخصية بشكل واسع. لكن في الشعر - على الرغم من وجود مثال درايدن أو زوكوفسكي - أشك أن «للمترجم العام»

أي مكان هنا. لقد عمل كل من درايدن وزوكوفسكي على تقدم تقنية الشعر في ترجماتهم، وزوكوفسكي يثير الاهتمام لهذا السبب بصورة رئيسية. ولكن صوت المترجم وطريقته في كلتا الحالتين واضحتان جداً. ولا يمكن للترجمة أن تكون خلاف ذلك. إن الترجمات التي تنجح بإعجاز - يقدر ما يمكن أن نتكلم عن النجاح في هذه المسألة - تكون ذات امتياز. هذا يعني أن عدة أشياء قد تضافرت لصالحها. وسيبدو أن باسترنك قد أتقن نغمة وحركة الشاعر الجيورجي تيتسيان تايبدز. فإن كان الأمر كذلك، ولعل ذلك أصبح ممكناً بسبب حبه الشديد لتايبدز لأنه كان - بطريقة ما قريباً جداً من نفسه. والحقيقة أنه عرف تايبدز عن قرب، وأن تايبدز استطاع أن يعطيه تفسيراً متكاملًا للقوائد الروحية التي اشتغل بها. لقد أبهجت ترجماته للشعراء الجورجيين تايبدز الذي اعتقد أنها دقيقة بشكل رائع وصحيحة موسيقياً - حتى وإن لم يكتب باسترنك أية قصيدة بالجيورجية.

ويطلب من المترجم أحياناً شيء من التقليد، أي

خضوع منضبط لأسلوب شاعر آخر. فالقصيدة التي يحاول أن يترجمها لا بد أن تكون اكتشافاً بالنسبة له، وعلى مستوى خبرته الخاصة تقريباً. وعليه أن يحترم النسق والوحدة والنسيج في النص الأصلي؛ بأن يجعل أسلوبه صعباً أو أن يسمو به، وأن يأخذ الحركة نفسها التي يجدها سواء أكانت سريعة أو متلجلجة في مكان ما بين الأدبين بحيث لا تكون غريبة ولا مألوفة. وفي القيام بهذا العمل يمكن للمترجم الممتاز أن يضيف مقدرة جديدة إلى اللغة الأم. ولا بد أنه بذلك سيوسع حدود الإدراك قليلاً من أجل أبناء بلده، وذلك بأن يعطي للغة مهمات أخرى، عن طريق إظهار الإجراءات التي تم استخدامها في مكان آخر لنقل حالات خاصة من الفكر والرؤى غير المتوقعة والمشاعر الغريبة. وهناك معنى يمكن من خلاله أن نرى الأدب العالمي بوصفه تعاوناً عبر العصور بين جميع الكتاب، القاصي والداني منهم، في تطوير أساليبهم التعبيرية المشتركة. ويجري هذا من خلال تصادمات الترجمة في عملية اتساع الوعي تدريجياً، وإصرار إحدى هذه اللغات على أن تكون قادرة على أن تقوم

بما قامت به لغة أخرى من قبل. وبهذه الطريقة أحرزت لغات أوروبا القومية بدءاً من القرن الثالث عشر وما بعد القدرة والمرونة وذلك عبر منافسة اللغة اللاتينية بوصفها لغة الثقافة. وبهذه الطريقة فإن لغات بدائية كثيرة في أنحاء العالم تدرب نفسها على إجراء تطبيقات على تلك اللغات المتقدمة أكثر منها.

لقد بدا من الصواب أن ندرس الترجمة على هذا النحو المطول لأن الدراسة المقارنة غالباً ما تلتقي بها. والترجمة هي وسيلة، مهما كانت معرضة للخطأ، فبدونها سنفقد مجالات واسعة من الأدب العالمي. إنها مخيبة للآمال عموماً، وعندها أمل ضعيف في البقاء والدوام، ومع ذلك فإنها تتراجع وتعود إلي التربة، وتغتني التربة بها على الدوام. علينا أن نتعامل مع كل ترجمة بحذر، وأن نعرف كم منها مؤقت وكم منها هو حل وسط مفروض. وكلما عرفنا أدبنا بشكل أفضل وأثبتنا قدرات لغتنا الخاصة، كانت الغريزة التي نسكبها أكثر ثقة في الحكم على الترجمة من لغة غير معروفة. وبما أن اللغة الإنكليزية حساسة واستكشافية، يمكن أن تكون لنا بعض الثقة

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

في المترجم. وهذا يمكن أن يعارضه القول أن إنكليزية إزرا باوند هي حساسة واستكشافية جداً، ومع ذلك فهناك عدد قليل من المترجمين الذين غاصوا في اللغة على نحو أعمق منه. فمن جهة أخرى، ومهما كانت تجاوزات باوند وأخطاؤه كثيرة، فقد أظهر دائماً فهماً جيداً للخصائص الشعرية التي حاول أن يترجمها. إن هؤلاء الذين تنقصهم مبادئ اللغة الإنكليزية القديمة يمكنهم مع ذلك أن يفهموا شيئاً ما أساسياً حول الشعر الإنكليزي القديم وذلك بأن يقرأوا بعناية ترجمة إزرا باوند التي عنوانها «البحار»، إنها ترجمة خاطئة ولكنها ملهمة. وقد طرقت درايدن صلب الموضوع عندما قال:

يجب أن يكون المرء ناقداً جيداً في لغته
الأم، قبل أن يحاول الترجمة عن لغة
أجنبية. لا يكفي أن يكون قادراً على
الحكم علي الكلمات والأسلوب؛ ولكن
يجب أن يتقنها أيضاً. يجب أن يفهم لغة
مؤلفيها بشكل كامل، وأن يتقن لغته
بصورة كاملة، لذلك إذا أراد أن يكون

**مترجماً بكل معنى الكلمة يجب أن يكون
شاعراً بكل معنى الكلمة.**

(عام 1926، ص 254).

وفي مجال واحد يكون المترجم المجاد ضرورياً أكثر من أي وقت آخر. إن دراسة الأدبين اللاتيني واليوناني لم تعد عامة في وقت يتزايد الاهتمام بتلك الآداب وحضارتها. إن آلاف مؤلفة من الناس قد قرؤوا «الإلياذة» و«الأوديسا» في الترجمة النثرية التي قام بها إي. ف. ريو بطبعة صادرة عن دار بنغوين و«الإلياذة» التي ترجمها شعراً سي. دي لويس. والقليل من أولئك الناس سيواصل تعلم اليونانية أو يزيد المفردات القليلة التي بحوزته. ويبدو أن الشخص المثقف في زماننا يقرأ عادة الأعمال الكلاسيكية وهي مترجمة. ولكن هذا ما فعله شكسبير أيضاً، بحكم الضرورة مع أنه يوجد اختلافات في الأزمنة. إن شكسبير شأنه شأن طلاب العصر الإليزابيثي، لا بد أنه كان لديه أساس جيد في اللغة اللاتينية. وإن استخدامه للعنصر اللاتيني في

مفرداتنا دلاً على أنه كان يفهم اللغة وأنه استطاع أن يستخرج منها معانيها الأقل وضوحاً. ومع أنه التفت فيما بعد إلى ترجمة غولدنغ للاطلاع على كتابات أوفيد وإلى ترجمة نورث للإطلاع على تاريخ بولتارك، فإننا يجب أن نتذكر بأن الثقافة الكلاسيكية كانت تملأ الأرجاء. كما أن الكاتب المسرحي المعروف بن جونسون أحب أن يروج لها. إن قارئ اليوم يجد عن طريق المصادفة آثاراً باقية من ذلك التأثير هنا وهناك في مقالة رئيسة أو تقرير رسمي. إن حضور اللغتين اليونانية واللاتينية، عبر المحاورة المتواصلة مع الماضي - قد ولت الآن. وسيكون من الصعب على كاتب مسرحي معاصر أن تتكون لديه حاسة تخيلية لروما تماماً كحاسة شكسبير.

ومن أجل التواصل مع أوروبا الأمس يجب ألا نترك الأعمال الكلاسيكية تركز إلى الصمت. إن صعوبات ترجمتها هي أسوأ مما كانت عليه منذ قرن مضى، قبل أن تحل بنا الغربية. فنحن نقف الآن بعيداً عن العالم الكلاسيكي في شروط حياتنا، في ثقافتنا

وبالتالي في لغتنا. وأصبحت عبارة «الآداب الإنسانية» قديمة في أيامنا؛ ولم تعد المدينة تزي نفسها؛ وإن وقار العصور الماضية غالباً ما يبدو منافياً الآن للعقل. لذلك يشعر المترجم بالإحراج عندما يكون عليه أن يفكر في نقل نبذة الأدب الكلاسيكية. إن ترجمة دي لويس ليفرجيل لا تنقصها القوة ولا الإحساس. لكن غالباً ما يوهن الفزع من الشكلية من عزمته. إن عصرنا هو عصر واع لذاته بشكل يأس ربما عندما تتجرأ المهوبة الرئيسة وحدها على أن تأمل في الوصول إلى تلك القوة غير الشخصية التي يحتاجها كل كاتب جيد - وكل مترجم.

ومع ذلك فبالمقارنة مع بعض الآداب الأخرى - وبخاصة مع تلك التي هي خارج أوروبا - يجب على ترجمة الأعمال الكلاسيكية أن تكون سهلة في التواصل مع الآخرين. إن لغتنا الإنكليزية لها خيوط اتصال عديدة معها؛ ونبرتها الأساسية غالباً ما تظهر في أدبنا الأقدم. وإذا ترجمت بشكل غير مناسب فسيعود النقص إلى اللغة الإنكليزية. وكلما أنجزت

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

أقل، تقلصت مصادرها بشكل ظاهر أكثر. إن عمل المترجم له مساوئ كثيرة، ولكن هذا العمل هو الذي يجعل جسم الأدب العالمي جسماً واحداً، ويساعد أيضاً في إبقاء اللغة حية، وقابلة للتغيير بتغيير الأوضاع والأفكار.

* * *

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

ثلاث قصائد(*)

أحمد شاملو - إيران

1 - ضباب

الصحراء بكاملها يكتنفها الضباب

فانوس القرية غير مرئي

موجٌ حار يهدر في دم الصحراء

الصحراء تعب

مبهورة

تنز مفاصلها عرقاً بأناة

في هذيان الضباب الحاد

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

الصحراء بكاملها يكتنفها الضباب، يقول عابر
السبيل لنفسه)

«كلام القرية ساكنة»

في تلافيف الضباب، أصلُ إلى البيت في الخفاء
لا يعرف «كلكو» ذلك، يراني فجأة عند عتبة الباب
في عينة دمعة وعلى شفثيه ابتسامة، سيقول:
«الصحراء بكاملها يكتنفها الضباب.. كنتُ أفكر في
نفسي،

لو استمر الضبابُ حتى الصباح، سيعود الرجال
البواسل من مخابثهم لزيارة أحبّتهم»
الصحراء بكاملها يكتنفها الضباب
فانوس القرية غير مرئي، موجُ حار يهدر في دم
الصحراء

الصحراء تعب، صامتة، مبهورة،

تنز مفاصلها عرقاً بأناة

في هذيان الضباب الحاد

2 - غزلُ في عدم القدرة

عن يدك الدافئتين

توأما حضني
لدي أحاديث جمّة كي أسردها
إن يدعني همُّ الخُبز
* * *

أيتها الشمس
عن حنان روحك السخيّ
بقيشارتك اللامتناهية
سأعزف ألحاناً مختلفة
وأناشيد
إن يدعني همُّ الخُبز
* * *

عن قوس قزحك الربيعي
المزاح عنه الستار في هذه الحديقة التي أدركها الخريف
بوسعي رسمُ نقوش وزخارف
بألوان شتّى
إن يدعني همُّ الخُبز
* * *
ينبوعاً في الفؤاد

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

وشلاً في الكف
شماً في النظر
وملاً في القميص
عن إنسان هو أنت
بوسعي تأليف أقاصيص
إن يدعني همّ الخبز

3 - تخطيط

الليلُ بحلقه الدامي
يطربُ
منذ غابر الأزمان
البحر قد استقرَّ بارداً
عُصنُ ما
في ظلمة الغاب
يصرخ تجاه النور

(*) هذه القصائد الثلاث مترجمة عن هذا الكتاب: (أحمد شاملو: شعر شاملو از آغاز تا امروز، محمد حقوقي، انتشارات نگاه، چاپ دوم تهران - 1989).

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

قصيدتان

إليزابيث ريديل (*) - أستراليا

البحار العجوز

يحلم البحار العجوز

بجزيرة صغيرة

تتكور مثل تفاحة في البحر الأخضر الكبير

(*) ولدت الشاعرة الأسترالية إليزابيث ريديل عام 1909 وعملت في صحافة بلدها منذ عام 1930. أصدرت الشاعرة مجموعتين شعريتين في بداية حياتها الأدبية: الأولى عام 1940 والثانية عام 1948 ومن خلالهما حققت ريديل مكانة شعرية مرموقة في الشعر الأسترالي المعاصر. يمتاز شعر إليزابيث بقدرة لا تُضاهى على الإيجاز.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

جزيرة صغيرة يستطيع أن يحملها بيده
لينعطف بها إلى هذا الطريق ثم إلى ذاك
يوجدها شجرةً هنا
وزنجياً هناك
يلبس قبعةً من سعف النخيل.
لقد أبحر البحار طوال حياته
حتى صار دمه مالحاً كالبحر
كانت سفينته حبيبته وزوجته
واجتاز كثيراً من الجزر حتى لم يعد
يلقي عليها
أكثر من نظرة عجلى
على الرمل الأبيض المتألق
للساطىء المقوس
الآن أصبح البحار عجوزاً
يتمنى جزيرة صغيرة مثل تفاحة
لينظر إليها ويحملها فقط.

ألمحان الريف

حين خرجتُ لأتمشى

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

قرب النهر المتدفق
رأيتُ ما لم أكن أمل أن أراه:
رجلاً أسوداً يغسل حصاناً أبيض.
هكذا كان يمضي العالم.

غسلَ ذيلَ الحصان
وضفره أصفرُ
العرض الغربي العنيفُ قد جاء إلى المدينة.
هكذا رأيتُ الحصانَ الأبيضَ الضخم
ورفيقه الأسودَ الشجاع.

طارت الصقور البرية فوق الدخان،
فوق النهر المتدفق
مشى الكابوي (....) باضطراب إلى الخلف
وقادته ساقاه الطويلتان دون رغبة منه
إلى حيث كان يمضي.

رأيتُ عينيه بزرقتهما المريرة
رأيتُ مَنْ عبر طريقي غير عارف

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

مَن سيقفز فوق رأسي تلك الليلة
فوق عمود الخيمة، فوق النجوم
فوق النهر المتدفق.

لن آمل أن أرى ثانيةً
حصاناً أبيضَ قد كُسي بالأصفر
الحصان، الصقور، النهر الفائض
عيني الكابوي بزرقتهما المريرة
أو الرفيق الأسود الشجاع.

ترجمة أديب كمال الدين

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

من الشعر الفارسي (الأفغاني)
طفلة يتيمة

خليل الله خليلي (*)

طفلة يتيمة
تاقت عن حضن أمها
طفلة عاجزة حزينة
تاقت.. وصارت
وردة تجمدت في برد الشتاء

(*) شاعر أفغاني عمل أستاذاً بالجامعة الأفغانية ثم سفيراً لأفغانستان في المملكة العربية السعودية (جدة)، ومن العراق كان يشرف على مصالح أفغانستان في سوريا والكويت والأردن، له مؤلفات بالفارسية والعربية، هاجر إلى أمريكا بعد أن تعرضت بلاده للغزو الشيوعي.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

شمعة ترتعش وسط عاصفة هوجاء
طفلة يتيمة، طريدة في نظر الزمان
رغم أنها برعم بستان الحياة
إلا أنها في نظره شوكة
طفلة يتيمة، تاهت عن حضن أمها
كم غسلت أمها بدموعها
التراب إذا ما استقر على ثوبها!
كم كان أبوها يحبها!
يحنو عليها
يخرج بأهداب عينيه الشوكة
إذا ما انغrust في قدميها
كم من الليالي ذابت أمها كالشمعة
بجوار فراشها
بينما والدها يفرش بالقبلات الحارة وجهها
طفلة يتيمة فقدت أمها، تاهت عن حضنها
ودموع الحسرة تتلألأ في عينيها
تبدو من بعيد مثل كوكب الصباح
والوجه الذي يشبه برعم الربيع

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

غطاء غبار اليأس

فمن سيمسح هذا الغبار عن وجهها؟

من سيجفف دموع الحزن من عينيها؟

من سيفرح عند سماع ضحكاتها؟

من سيحزن عند سماع بكائها؟

من سيسأل نسرين

إذا ما كانت قد تاهت عن حضن أمها؟

ترجمة سمير عبدالحميد إبراهيم

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

نوافذ (20) ، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

من الشعر الفارسي (في الهند) هدية العيد

شبلي النعماني (*)

لا تطلب مني في هذا العيد
أن أطرب
وأغني بجميل الشعر
فالخزن شديد
ما معنى العيد؟

(*) ولد شبلي النعماني في قرية تابعة لأعظم كوة في الهند سنة 1857م وتوفي سنة 1914 هجرية فكان مولده عام الثورة ضد الإنجليز وكانت وفاته عام اندلاع الحرب العالمية الأولى، له مؤلفات نثرية وشعرية، وقد قال الشعر بالعربية والأردية والفارسية، وهذه الأبيات من قصيدة له بالفارسية ألقاها (عام 1883م) في يوم العيد في جمع من المسلمين وبكى فأبكى الحاضرين على حال الأمة آنذاك وهي لا تختلف عن حالها اليوم في شيء.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

وآلامي تقهر جبل الصبر
هل قُضي الأمر؟
الأمّة صارت هدفاً لسهام الأعداء
يا كم خدعونا بالقول اليراق، بكل غشاء
خدعونا بالصور الشوهاة
فلهثنا خلف الأوهام الخادعة
حتى ضجت منا الأهواء
آه من فتن ينسجها الغشاشون الكذابون بلا رحمة
هل نحن الأبناء البررة في هذه العتمة؟
هل نحن كما كنا لازلنا أمّة
من يكشف عنا هذي الغمة؟
من يملك فينا العزيمة والثبّة والهمة؟
لا تطلب مني شرحاً
فالليل قصير، والحزن وفير
وأنا مكلوم القلب حسير
لا تطلب مني أن أشدو في هذا العصر
بدر القول
فقلبي مفطور وكسير!

ترجمة سمير عبدالحميد إبراهيم

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

حب

كاتيا بيرنز* - الهانيا

ترجمة علي عودة

لم أبتغ ذلك، ولم أدرك إلى أي مدى قد يصل الأمر. كانت مجرد نظرة فكانت البداية. لم تكن نظرتي إليّ عابرة ولا فضولية أيضاً. رمقني بنظرة لم أحظ بمثلها من رجل منذ سنوات.

(* ولدت في برلين عام 1942. تعيش اليوم في اليمينفيلد. وهي قاصّة ومترجمة. أخذت هذه القصة عن مجموعتها القصصية (المرأة البيضاء)، الصادرة عن دار نشر سور كامب/ فرانكفورت عام 1978.

كنت قد تركت النافذة مشرعة، فصعد بمنتهى اليسر.

استيقظت في الحجرة المعتمة من حلم، واعتقدت، أنني حلمت بشيء يدور متخبطاً، ولكني مازلت أسمع دوماً حركة خفيفة في البيت، لم أشأ التصديق، أن شخصاً ما هناك، بعد كل هذه السنين، لم يكن فيها ثمة شيء من هذا، وأردت مواصلة النوم، إلا أنني نهضت دون أن أشغل الضوء، ونزلت السلم حافية.

في الأسفل تلمست في الممر مفتاح الضوء. فسطع النور فجأةً، كان رجل يقف على باب غرفة السكن. وقف هناك وقد ضيق عينيه بسبب الضوء.

أردت الصراخ. حينذاك رأيتُ شاباً يافعاً، لم أعد خائفة البتة، اتجهت نحوه، تحدثت ولا أعلم ماذا قلت، أي شيء.

لم يتحرك ولم ينبس. نظر إليّ بعدم ثقة، وحينما وقفت أمامه، أمسك ذراعي بقوة. ارتعش فمه، وأدركت، بأنه سيضرب عند أي حركة خاطئة.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

إلا أن نظرته لا تشي بالعنف، فيها شيء من التساؤل وشيء من الدهشة.

قلت: أصنعُ شايًا. فتركني ودسَّ يده في جيب سرواله. استدرت وتحسست ظهري وعنقي ومؤخرة رأسي، فيما إذا غرس سكيناً في ظهري.

ذهبت إلى المطبخ، لمحني، كيف كان ينظر من ورائي، وأنا في قميص النوم، حافية وشعري ملفوف. تابعتني بحذر، ثم مكث واقفاً في وسط الحجرة. قلتُ له: تفضل بالجلوس -، بينما كنت أفتح ثلاجة المطبخ، وأخرج منها علبة الشاي، وأجهز الفناجين. ولأنه لم يتحرك، أعدتُ القولَ مرةً أخرى: تفضل بالجلوس -،

سحبت أحد الكراسي الخالية دوماً عن الطاولة، ولاحظت من زاوية عيني، كيف جلس على حافة الكرسي ممتعضاً ومتربكاً، كان يتسلى في المطبخ، حينما طارت الأطباق فجأة عن المنضدة وشقت هدوء الليل عند ارتطامها بالأرض.

انحنيت لأجمع الشظايا واحدة بعد الأخرى، وحاولت تذكر رقم شرطة النجدة، وأظن أن شظايا

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

مدببة في يدي ومقبضاً في الخنصر، وعليّ أن أترك
البيت وألوذ بالجيران.

فحملت الشظايا إلى سلة القمامة، دون أن أنظر
نحوه، ووضعت فنجانين جديدين على المنضدة وقلت:
تفضل، ليس لدي أطباق كثيرة، وسكبت الماء المغلي
على الشاي، بينما كان يراقبني وهو يشبك يديه على
صدره.

لم أجد اللحظة، التي أفلت فيها. وأتذكر الآن
بدقة، متى سمعت صوته أول مرة وماذا قال.

قال وبموضوعية: لا تُصدقي فقط، أنه بمقدورك
مهاتفة الشرطة. وقد تعافيت كثيراً إلى حد أن
تساءلت بدهشة: ولم عليّ مهاتفة الشرطة، حتى ذلك
الوقت اتضح لي كل شيء: لصٌ يقتحم منزلي. كان
شاباً يافعاً، أربكه هدوئي الذي أملاه سني.

ساد الهدوء بغنة المطبخ، إلى حد كنا نسمع فيه
هدير السيارات الخافت على السير السريع النائي.
كلانا كان يبذل في فنجانه صامتاً. أحسست بضغط
يده على ذراعي. سبب لي شعري الأشعث وقميص

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

نومي المهمل إرباكاً. لم أعد آمنة، ولم أجرؤ على
التطلع إلى الأعلى لمشاهدته.

أحسست بجفاف فمي، من ثمّ تطلعت مباشرة
إلى عينيه، اللتين حملتا بي، وكأنه ينظر إليّ الآن
للمرة الأولى، برقة، عجزت عن مقاومتها.

نسيت، كيف دلف، كان قميصه مفتوحاً. طلع
النهار خارجاً، وبدأ أول طير يصدح. وجب عليّ أن
أقول له، حينما سألني، فيما كنت أعيش وحيدة، لا،
زوجي ينام في الأعلى، لو قلت ذلك لكنت آمنة،
ولشرب شايه وانصرف. ولكنك فتحت له باب المنزل.
وودعته كأبي زائر، بعدئذٍ لكنت أدركت المفتاح مرتين
وأوصدت نوافذ غرفة السكن، وربما هاتفت حتى
الشرطة.

إلا أنني أومأت دون أن أنظر إليه، أعلم، أنه
بمقدوري النهوض الآن والذهاب إليّ الحمام، حتى
أمشط شعري.

نظرت في المرأة متفكرة: إنك مجنونة.. كان
عليك.. لماذا ليس لديك... وهل أنت على عجلة

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

للعودة ثانية إلى المطبخ... أنت ملزمة بالقول له الآن،
أنّ عليه الانصراف.

عندما عدت، كان قد نهض، وشبك يديه مجدداً
فوق صدره، واعتقدت أنني لست بحاجة لقول ذلك له
البتة. لم أجرؤ حتى على سؤاله، فيما إذا أراد المزيد
من الشاي.

عمّا قريب سيستيقظ الجيران، ومن المناسب،
لأنه انصرف الآن...، مادام لم يره أحد. لكنه لم
ينصرف. تطلّع عبر النافذة إلى انبلاج الصباح، ثم
استدار نحوي. ونسيت الجيران وأذنت له، بسحبي
إليه، أحسست بجسده اليافع، في وسط المطبخ وبين
أثائه الأبيض كنت على مدى لحظة صغيرة ومطمئنة.

إلا أنني نظرت إليه فيما بعد على ضوء مصباح
المطبخ، فخطرت ببالي تجاعيد وجهي، بينما كان....

.....

مازلت أدرك، أنني صدقت، بأنه قد ينصرف،
عندما تركني فجأة، وبشيء من الغلظة، لكنه لم
يذهب، وبدا بغتة لا حيلة له، حتى أنني مسحت على

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

شعره، وأزحت الشعر الأسود عن الجبين، وجلست
ثانية في حيرة، وصبت الشاي.

أتذكر ذلك العصر المرعب بدقة، حينما غادر
بمعانقة قصيرة على باب المنزل المُشرع.

كنت أعتقد أن الطمأنينة هي التي تَعْمُ في
السنوات الأخيرة، وأنني صرت أكثر أماناً.

فما أن فرغت من ترتيب المطبخ، حتى أحسست
بالإشارة الأولى. لم يعد المنزل خالياً كما كان لفترة
طويلة.

جلست على المنضدة ودخنت سيجارة وأخرى،
وقد توقف كل شيء عن الحركة. كان المطر ينهمر.
فقط هذه القطرات الجارية على زجاج النافذة، السماء
رمادية والحديقة حزينة.

زحفت إلى السرير وحاولت النوم. لماذا فعلت
ذلك، قد يكون مثل أبيك، مثل ابني! يداه رقيقتان
وقوبان. نهضت ونزعت أغطية السرير. الرائحة
باقية... والخجل.

لا أفكر بذلك كثيراً، بمقدوري نسيانه، لا أهاتفه
ولا أراه ثانية.

ولما اضطرني حقيقة في الأيام التالية إلي ترك
التلفون يرن، اعتقدت، أنني تعلمت. ليس لدي أية
رغبة، تجولت في البيت دون هدف، جلست القرفصاء
على منضدة المطبخ ودخنت. استلقيت في السرير
ودخنت، وأحياناً أتذكر كيف مدّ يديه، حتى يتمكن
من (...)، ورائحة لاذعة من كتفه المبلل بالعرق
الداقي.

ليتني لم أضعف. لكن البيت كان خالياً حد
الجنون. فحين أضع اسطوانة، تُثير أعصابي الموسيقا،
وعندما أوقفها ازداد عصبية بسبب الهدوء.

كان المطر ينهمر، ينهمر طوال اليوم، كانت
السماء متعكرة، كما أنا في عقلي. وبعدما
استسلمت، لا أعني متى تماماً، في وقت ما ذهبت إلى
التلفون. سمعت بصعوبة ما كان يقول. كنت أصغي
إلى الصوت فقط، كان الأمر، وكأنني مستلقية إلى
جواره، بعيون مغلقة، سئمة ومثقلة.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

كنت أجيب دون أن أدرك ماذا. أنى هو إليّ
أولاً، بعد أن وضعت سماعة الهاتف وقبل الدعوة.
فكرت من فوري، بأنني لن أذهب بالطبع إليه،
لن تذهبي إليه أبداً.

سيلاحظ الجميع، أننا لسنا أم وابن. لا تفكري
بذلك كثيراً. عيشي حياتك كالسابق. وذهبت إلى
الجارة في الجانب الأخير. أعددت الكذبة حال سؤالها
عن الرجل الشاب، الذي كان قد غادر المنزل قبل وقت
قصير. بضع كلمات فقط، ليس لك أن تُبرري، وليبق
كل شيء على حاله، وكأن هذه القصة المخجلة غير
موجودة.

لم أعد أتذكر، لم ذهبت، ومازلت أعلم فقط،
أنني في الليلة السابقة، وقبل النوم بقليل، شممت
للمحظة الشذى الفواح لجسده الناعم، وعند الصباح
صحت نشطة وبكامل عقلي، لعلي أصبحت
مستهترة، أو ربما لأنني أحسست بالأمان، وربما
تصورت أيضاً، إنه ليس بوسعي دعوة الشاب ليجلس
بكل بساطة. على أي حال ضبطت نفسي متلبسة،

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

كيف كنت أبدلّ ملابسي، رغم أنني لم أحزم أمري
على الذهاب إليه.

أعلم يقيناً، كيف جلست في السيارة، حانقة،
لأنني كنت مبكرة وسألت نفسي، ماذا تفعلين هنا؟
وراودتني فكرة الإياب إلي البيت ثانية.

بدا مختلفاً تماماً، حينما استعدته في الذاكرة.
مازال يافعاً، جماله ظاهر، فائق الجمال ومتكاسل.

دنوتُ من طاولته وسألت نفسي: كيف لي أن
أجتاز هذا المساء، وغمرني الخجل، لأنني حضرت.

لا أحب التفكير بذلك، وكيف حييته بيدين
ممتدتين، إذ ما كدت أجلس حتى بدأ ينبش في
حقيبتي باحثاً عن سجائر. ناولني علبته الصغيرة وهو
يقول، لا أدري ماذا بعد، كل ما أعرفه، أنني كنت
مندهشة، حينما خاطبني دون تكلف، حيث جلست
على مقعدي بوقار وأنا أنفث الدخان وأحسُّ
بالارتباك، لما سألتني: ماذا أريد أن أتناول من
الطعام؟

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

أمعنت النظر في لائحة الطعام، وقد يكون من
الأفضل أن لا أكل شيئاً إطلاقاً.

أعرف اليوم، أنه كان مرتبكاً أيضاً، ولهذا كان
يتحدث، بينما كنت أنظر إليه وأصغي. على المنضدة
كانت تحترق شمعة، وأنا أرقب يده، كيف يمررها
بطيئاً تحت القميص المفتوح ويمسح جلده وينقلها إلى
الكتف وتستقر هناك على الكوع الناعم، المستدير
والقوي، وحينما عاودت الإصغاء، جلست امرأة
عجوز شعشاء الشعر جامدة في السرير وصرخت،
لصوص قتلة، وواصلت الصراخ حينما استدار قليلاً،
وهرب عبر النافذة منزلقاً على ميزاب المطر، انزلق هذا
اللص، ذو الصوت الصاخب، سريعاً، لكنه لم يهبط
الشارع بذات العجلة، حيث لحق به لصوص قتلة
بهدوء وتباطؤ.

أكل وضحك، وضحكت أيضاً وفكرت، يا
إلهي، أمل أن لا يسمعنا أحد. نظر إليّ بشيء من
السخرية. بعد الطعام أشعل سيجارتين، ناولني
واحدة، ولمس أثناء ذلك يدي برقة، صرنا نضحك على

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

حين غرة ساخرين من بعضنا بعضاً وكأننا سرقنا كرزاً،
ونختبئ الآن خلف سورٍ صغيرٍ ونتفل النوى.

أتذكر ذلك، حيث كنت لوقت طويل أقنع
نفسي: عليك التوقف، إنك تجعلين من نفسك
أضحوكة، عليك التوقف، أنت بحاجة لرجل.

- إنني بحاجة لرجل لا لطفل.

تخيلت كم أنا حمقاء، وقررت، قررت بحسم،
أن أضع نهاية لهذه القصة مرة واحدة وللأبد، حالما
يعاود الاتصال.

لم يتصل. ساررني القلق بداية، ثم غضبت،
وأخيراً أحسست بالشوق وانتظرت وانتظرت،
وأصغيت إلى التلفون، الذي لا يريد أن يرن. لعنته،
لم أذق طعم النوم، وفكرت، ربما قبضوا عليه. كنت
أرتعب حينما ألاحظ الشرطة على الشارع.

عبرت ذات مرة عربة شرطة من أمام المنزل،
جلس فيها رجلا شرطة شابان، كانا يتفحصاني
بوقاحة، عندها كنت على يقين من ضبطهم إياه،

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

ولكنني لا أريد تصديق ذلك، لما رأيته في اليوم التالي واقفاً أمام الباب، تحت المطر، ضاحكاً مع باقة ورد تفوح شذىً وتقطر ماءً.

ولا أنسى كيف صحبني تحت المطر، والقطرات تسقط دافئة على الوجه. عرفني بأشجار غابة الصنوبر الصغيرة، التي اعتدت التنزه فيها وحيدةً. قلت من أعماقي: سيد ذو مبادئ، ومَلِك مُسَقِّم، والماء يقطر من فروع شجرة الصنوبر العجوز المهيبة، وعبق شوك شجرة التنوب والأرض الطرية.

حين خرجنا من الغابة توقف انهمار المطر. أشرفت الشمس، أمامنا أرض كثيرة التلال والمراعي، العشب لم يرتفع كثيراً، وهو مازال طرياً أخضر، وفي الأسفل بانت استدارات الأرض اللذيذة.

انحدرنا فوق سور المرعى وصعدنا أحد التلال. في الأعلى تحسست بظهري الخشب المشقق المجذع الشجرة، ضغطت على الشجرة، القشور الخشنة، يديه وجسده، واعتقدت أنني كبرت على هذا.

صعدنا للأعلى إلى العُشب الرطب، شاهدت

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

السماء في الأعلى، فهي لم تعد رمادية، ونظرت إلى البحيرة الزرقاء الصغيرة وسط الغيوم. كانت تفوح من العشب رائحة منعشة وقوية بعض الشيء.

تأتي الذكريات وتذهب، وأحياناً، حينما أفكر بأشياء مختلفة تماماً، تكون هذه الذكريات هناك بغتة. لم تؤثر جهودي كلها أيضاً للتخلص منها.

تارة أخرى، حين أكون طوال الليل كحجر، مفضلاً تحمل الألم، تتوارى هذه الذكريات، أنسى كل شيء، وأكون مثل باب مسمّر.

عندما عدت أخيراً إلى الحياة اليومية، لم أزد أن أعرف شيئاً، حينئذ يرقد هذا الشاب هناك مرة أخرى ويقول: لا أريد إلزام نفسي بعمل، لا أريد التعود.

أحسست بالتفوق. ماذا لو فكّر الجميع هكذا، ماذا لو فكّر أي واحد؟ وأولئك الناس، الذين يسرقهم، فإنهم ملزمون بالعمل؟ هكذا تخيلت حقيقة آنذاك: أنني شفيت. نعم مع ذلك اعتقدت، إمّا الآن

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

أو فلا، وحاولت الانفصال عنه. لم أنتظر أيضاً، ولا في الأيام الأولى.

لقد كان زمناً، قيل لي فيه من الجميع، إنني أبدو جميلة، ولم أعد أنظر باستسلام إلى المرأة، بل كنت أضحك في سري، وكأن شيئاً خلف تأخر الزمن وتأخر قراره.

ولاحظت فيما بعد، أنني أنتظر. لاحظت ذلك بكيفية هجومية على التلفون حينما يرن، وكيف أصغي، عندما تتوقف عربة أمام البيت.

وعندما وقف أمام الباب بعد أسابيع عدة، كان هناك ودبت الحياة في البيت مجدداً. اتكأت عليه، تطلعت عبر النافذة إلي الحديقة المعشوشبة المغمورة بأشعة الشمس.

أي لحظة كانت هذه؟ من وقت لآخر كنت أجوب في ذاكرتي باحثة عن لحظة.

هل ستكون لزاماً عليّ في وقت ما أن أقف في المحكمة، وهل سيقدرّون على تحديد هويته بدقة، وذلك حالما يعلنون عن المجوهرات.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

إلا أنني لا أعتقد أنه كان في ذلك اليوم، الذي أحضر فيه السلاسل والأساور، وتخاصمنا فيه لأول مرة.

كان قد وضع الحللي على المنضدة وسأل: أتستطيعين من أجلي الاحتفاظ بها لفترة من الزمن. ليست المسألة، أن هذه الأشياء مسروقة. وقد ابتعدت في هذا الوقت عن مثل هذه الأمور. لكنني اعتقدت، أنه يستغلني ويريد أن يُسيء إليّ.

صامتة كنت أغلي الشاي وصامتاً كان يدخن. جهزت المائدة، بينما كان هو يشبك يديه على صدره، والسيجارة في زاوية فمه، وقد ضيق عينيه ليحميهما من الدخان.

تفحصت رسومات غطاء المنضدة، الزهور البيضاء والزرقاء، محاطة بإطار مربع أبيض وأزرق اللون، وبقعة شاي رطبة إلى جانب فنجانه، وحينما رفعت نظري بدا صامتاً.

قلت: في قبوي ثمة حفرة. يمكننا أن نخفي الحللي فيها.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

وتناولت أحد السلاسل بيدي محدثة نفسي:

- الآن أنت متورطة بذلك.

كنت منزعجة على مدى يومين، إلا أن ذلك توقف الآن. وأعلم يقيناً مني. كان ذلك عندما ساعدني بإغلاق حقيبة السفر.

ليس بوسعي شرح ذلك اليوم، هذا الشعور، الإحساس بالأمان لدى رؤية ذراعاه، أعرف فقط، أنني قبلت بالحلي في القبو، عندما رأيتاه يحمل حقيبتني. وتسلقنا الصخور حالما خلعنا النعال، ربما كان ذلك في يومي الأول خلال الرحلة.

أحاط خاصرتي بذراعاه، وخضنا في الماء. تركني فيما بعد، حتى يسبح. ولعلها كانت لحظة، عندما طلع من الماء ضاحكاً وهو يزيح شعره المبتل عن وجهه، ورائحة الملح والسمك تفوح من البحر.

أو كانت ليلة على الساحل، حينما جلسنا على الماء، نصغي للأمواج، والقمر هلال متأرجح دوماً بلا بداية وبلا نهاية.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

وربما كان ذلك شيئاً مختلفاً، فمصيري مثل
مسافر يأتي بيتاً لا يألف فيه شيئاً، لا المضيف ولا
السريـر، ولا رائحة حجرته. وهكذا كشأن المسافر،
الذي لا يدرك أنه يتعود شيئاً فشيئاً كل يوم على
المنزل القريب، إلى أن يألفه وكأنه بيته.

هذا الإنسان العنيف، الهارب من مخاوفه يهرع
إليها. هذا كاره العمل، أنهك نفسه في أيام الآحاد،
التي صنعها لنفسه.

لم أكن حاضرة حينما عشروا عليه. ولم يكن
يريد أن أرافقه. هذه المرة لا، إنها مخاطرة. كان هذا
آخر شيء تفوه به.

أساء لي ذلك بداية، ثم صرت محتدة، وفيما
بعد بدأت بالقلق، وبعد ذلك كان ثمة عدم ثقة.

ليته لم يكن إطلاقاً، وماذا لو تعرّف على فتاة،
شابة، مع عدم الثقة هذه اقترن الخوف، الخوف من
فقدانه بسبب هذه الفتاة.

سألت نفسي عن اسمها، وكم مضى على

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

تعارفهما. وقد كنت على ثقة تامة، أنه كان يكذب علي، وإلا لكان يصطحبني معه.

فكرت فقط في هذه الفتاة ذات الوجه الغض. حاولت مواساة نفسي، من أنها قد تكون غبية وغير مهذبة. مع كل ذلك أحسست بأنني مغلوقة على أمري، لأنها بلا ارتياب، وبلا كآبة، غبية ولكنها ليست منهكة، وليس بوسعي إلا أن ألتمس لها العذر، فهي تناسبه أكثر،

استلقيت في السرير وانتظرت حتى الصباح، ولما طلع النهار ولم يأت بعد، نهضت وارتديت ملابسني. لم تكن لي حاجة بالنظر إلى المرأة لمعرفة أنني استعدت وجهي العجوز.

انتظرت طيلة النهار، ولم أطق صبراً في المساء. فطفقت أبحث في المقاهي والملاهي والبارات، وكل مرة أفتح فيها باباً، أمل أن يكون هنا، وأحياناً، عندما كنت أشاهد شاباً عن بعد، أعتقد، أنه هو.

بحلقت في كل الوجوه فلم أر أحداً، وحدثت، ربما مازالاً في السرير.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

و حين مرت بي سيارة شرطة متمهلة استدرت
و عدت إلى البيت. و دون أن أخلع المعطف بدأت
بالشرب. انتظرت و احتسيت، انتظرت و أصغيت.
و قبل أن أصحو بقليل، راودني أمل جنوني،
بأنه حضر ليلاً، و يستلقي الآن جانبي.
أبقيت عيني لبرهة مغلقتين، شعور حد السعادة
و اليقين بوجوده، إذ ليس علي إلا أن أمد ذراعي
لألمسه.

عزمت أن لا أتهمه، و على الرغم من معرفتي
المطلقة، بأنه لم يكن مستلقياً، تحسست السرير.
أتذكر، أنني فتحت الصحيفة و قرأت هذه الجملة:
عاش حياة كانت إهانة لنا جميعاً. أتذكر أنني نهضت
و فتحت النافذة على مصراعها.

* * *

فراشات في الليل

غلام حسين نظري - إيران

ترجمة عبدالوهاب علوب

فاجأتهم. وما أن دخلتُ الحجرة كانوا ثلاثتهم
جالسين متحلقين حول الفرن المدفأة. قفزت أُمي من
مكانها وفتحت غصني ذراعيها العجفاوين
لتحتضنني. رأيت نفسي وقد عدتُ نفس الطفل
المسكين الهارب من المدرسة الذي يلوذ بأحضانها.
قلتُ لنفسي: «لقد كبرتَ يا رجل ولم تعد صغيراً».

ولكنني لن أكبر أبداً؛ لن أكبر أبداً.

مددت يداي لأخي وأختي وقبّلت جبينهما
وجلسنا. لم تكن أمي ترفع عينيها عن وجهي:

- «حسن؛ احك لي».

بلعت ريقِي، «احك لك، أين كنتَ طوال هذين
العامين، ماذا كنتَ تفعل؟».

- «هل أنت مرهق؟».

لم أحر جواباً،. كان أخي يجلس أمامي، وكان
الشعر قد بدأ ينبت فوق شفثيه، وعيناه... كأنهم
زرعوا الخوف في عينيه. سألته:

- «وأنت، ماذا تفعل؟».

- «لا شيء».

لم أقل شيئاً لأختي. كان كل منا يكتفي بالنظر
إلى الآخر، في برود وصمت. كعاشقين بلا أمل، نظر
كل منا إلى الآخر وحسب.

فوق الفرن المدفأة، كان نفس المصباح المستدير
القديم لايزال يشتعل، وكانت بضعة يراعات تدور حول

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

شعاعه. لم يتغير أي شيء، الأبواب، الجدران، النوافذ، الستائر، عروق السقف. لم يتغير أي شيء. كل ما هنالك أن أمي ازدادت عجافاً، وكانوا قد زرعوا الخوف في عيني أخي، وأختي... كانت أختي تجلس كأنها دمية جميلة وقد اتكأت بذقنها على حافة الفرن المدفأة تنظر بعينيها الزجاجيتين إلى شعلة المصباح.

قالت لي أمي: « ألم يعد لك لسان في فمك؟ »

- « ماذا أقول؟ »

- « أين كنتَ خلال هذين العامين؟ ماذا كنت تفعل؟ »

- « لا شيء ».

- « أنت مرهق. سأنهض وأعد لك الشاي ».

لا. لم يتغير أي شيء؛ الأبواب، الجدران، النوافذ، الستائر، عروق السقف. كل شيء كما كان. كل ما هنالك أنني أظن أن شيئاً قد انكسر في قلوبنا؟! كسروا شيئاً في قلوبنا.

كان المصباح يشتعل فوق الفرن المدفأة، ولم تعد

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

اليراعات تدور، التصقت بزيت المصباح، وكان براد
الشاي يقرقر وهو يغلي، وكان رأس أختي يتدلى علي
ركن من الفرن المدفأة كأنه رأس دميمة مخلوع. كان
الليل يمر بطيئاً، ونحن ننظر إلى بعضنا البعض في
حزن صامت.

جوتنجن، ليلة العيد 1344 هـ

* * *

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

أيها المواطنون الكرام!

عزيز نسين (*) - تركيا

ترجمة صفوان الشلبي

حين دوى صوت تهشم زجاج من غرفة السيد،
كانت الخادمة في المطبخ، والسيدة أمام المرأة تصفف
شعرها بلفائف الشعر وتوبخ الخادمة عن بعد. كانت

(*) (1915-1995) عميد كتّاب القصة القصيرة التركية. نال ما يزيد عن
اثنى عشرة جائزة عالمية للأدب الساخر والقصة القصيرة. ترجمت مؤلفاته
التي تزيد عن خمسة وسبعين كتاباً وأكثر من ألفي قصة قصيرة إلى أكثر من
خمس وثلاثين لغة مختلفة. أسس عام 1972 دار نسين للأيتام ورصد له كل
ربيع مبيعات كتبه التي كسب منها ما لم يكسبه كاتب تركي قط، واكتفى
خلال حياته براتب شهري محدود.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

جميع نوافذ المنزل مغلقة فأحدث الصوت دويًا هائلًا
وكان زجاج جميع مباني المدينة قد تهشم.
فزعت السيدة وهرولت تولول للغرفة التي صدر
عنها الدوي. كان باب الغرفة مغلقاً من الداخل.
- سيد، سيد، سيد!...

لم تتلق أي رد من الداخل. استمرت السيدة
بطرُق الباب بقبضتها ثم تكومت عند عتبة الباب.

هذه المعلومات التي تسربت، أشبه ببداية
الأحداث في فيلم سينمائي مثير بانتظار حضور
ضابط الشرطة الذكي ليحل اللغز.
دوي هائل يصدر من غرفة موصد بابها. خلف
الباب رجل لا يجيب، هل قام بالانتحار؟ هل قتله
أحد؟ أم قد أصابه مس من الجنون؟ ليس أي من
الاحتمالات.....

السيد، الذي يقف خلف الباب، كان من رجالات
السياسة، وقد عاد لتوه من حملة انتخابية. أول

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

مهرجان خطابي له كان في جمع غفير من سكان إحدى المدن الكبيرة. كانت المدينة تعاني من الاكتظاظ السكاني الناجم عن هجرة سكان الأرياف إليها، مما أربك مرافقها العامة.

تحدث السيد قائلاً:

«أيها المواطنون الكرام! إن لهم رائحة نتنة، تزكم الأنوف. وحتى لو سددمتم أنوفكم عند ملاقاتهم فستبقى رائحتهم تزكم أنوفكم مدة تزيد عن شهر.

أيها المواطنون الكرام! لقد أصبح العيش في هذه المدينة لا يطاق بسبب هؤلاء الدخلاء القرويين الذين قدموا المدينة طمعاً بما فيها متخللين عن أولادهم وأزواجهم تاركين بيوتهم غير عابئين بصفاء ونظافة هواء قراهم. لم يترك هؤلاء الغرياء المحتلون سريراً في مستشفى، أو صحناً عند بائع الحلويات ولا حتى حبة كوسة في هذه المدينة التي أنتم أصحابها الأصليين.

إنهم أيها المواطنون الكرام بهجرهم الزراعة يعرضون الاقتصاد القومي للخطر، كما إنهم يشكلون عبئاً على مرافق المدينة العامة.

أيها المواطنون الكرام، كونوا على ثقة تامة بأننا

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

سنتخذ أشد التدابير من أجل إيقاف الهجرة باتجاه المدينة، لتبقى المدينة لأبناء المدن والقريه لأبناء القرى. يا مواطني الأعزاء! صدق الأولون حين قالوا إن البيت لصاحب البيت والقريه للقروي ومن ليس عنده مأوى فليلذ بجحور الفئران... بناءً عليه ومهما كانت الحجة والادعاء فالهجرة إلى المدينة يجب أن توقف، أما التدابير المطروحة فهي فرض ضريبة دخول مرتفعة على كل قادم إلى المدينة، في محطة القطار، في الميناء، وبعد ذلك أيها المواطنون الكرام....».

اليوم الذي يليه، ذهب إلى القصبة، وتحدث بجمع غفير من القرويين الذين احتشدوا بالميدان قائلاً:

«مواطني الكرام الأعزاء، قبل كل شيء أحب أن أقول يا إخواننا القرويون إنكم عماد هذا البلد الذي تشكلون خمسة وثمانون بالمائة من تعداد سكانه. مواطني الكرام! لن يظل القروي موضع إهمال بعد الآن، لقد قبل قديماً «القروي ولي نعمتنا» وسنجسد هذا القول بالفعل، ونجعل منه حقيقة واقعة.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

مواطني الكرام، أنا قروي ابن قروي مثلكم، فضعوا يديكم في يدي لنوقف المتبرمين من هجرة مواطنينا القرويين إلى المدينة عند حدهم، إن هؤلاء المعترضين لجهلة مساكين، لا يعلمون ما هو التاريخ، ما هو العلم، ما هي المدينة وما هو الاقتصاد.

أيها المواطنون الكرام! إن الهجرة من القرية نحو المدينة عامل من عوامل نشوء المدن وتطور هذا البلد، إن أول هجرة قروية نحو المدن الكبيرة حدثت في القرن العاشر وفي إنجلترا، وهكذا أيها المواطنون الكرام....».

اليوم الذي يليه، تحدث السيد رجل السياسة أمام رجالات الاقتصاد فقال:

«أيها المواطنون الكرام، أيها الأصدقاء الأعزاء! إن ارتفاع نسبة الرفاهة في بلد ما وكما هو واضح لنا جميعاً يتأتى بمقدار حجم العملة الصعبة الواردة للبلد، واحتياطي دولة ما من العملة الصعبة يتناسب طردياً مع حجم صادرات هذا البلد. وهذا يحتم علينا يا أيها

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

المواطنون الكرام إقفال باب الاستيراد وإعطاء المزيد من الدعم لرفع حجم صادراتنا، إن ما نحصل عليه من عملة صعبة من الصادرات، يجب أن لا نهدره بالاستيراد، وإلا، معاذ الله، تعرض توازننا المالي للخلل، وهنا الطامة الكبرى، فليكن شعارنا أيها المواطنون الكرام، لا استيراد بعد اليوم ولتفتح الأبواب على مصراعيها من أجل التصدير...

أيها المواطنون الكرام. أيها الأصدقاء الأعزاء!... إن وقف استيراد البن من الخارج لن يمتنا، إن إغلاق باب استيراد السيارات لن يمتنا، ماذا لو أوقفنا ولفترة من الزمن استيراد أكرات الأبواب، المغاسل، أحجار المرحاض الأجنبية، هل ستحل بنا كارثة؟... أولاً، علينا تأمين العملة الصعبة بالتصدير ومن ثم أيها المواطنون الكرام...».

اليوم الذي يليه، كان يتحدث أمام كبار المستوردين فقال:

«أيها المواطنون الكرام! إن ارتفاع القدرة

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الشرائية لمجتمع ما، هو معيار لمستوى الرفاهة في هذا البلد، إن ازدياد الطلب على سلعة ما، مع وجود خلل في ميزان العرض والطلب سيؤدي حتماً إلى فقدانها من الأسواق وبالتالي إلى تدمير وشكوى من المواطنين، وهو ما لا نرضى به ولن نسمح به أبداً. وبناءً على ما سبق يا أيها المواطنون الكرام، نحن مع فتح اعتمادات مالية كبيرة للتجار المستوردين. إن توفير سلعة ما عامل مهم في خفض الأسعار، إيقاف الاستيراد يؤدي إلى أزمة بالأسعار وعامل أساسي لرواج تجارة السوق السوداء. وهذا ما سيؤدي إلى انحلال الخلق القومي للمواطنين ونشوء فئة واسعة من المهريين.

لهذه الأسباب مجتمعة يا أيها المواطنون الكرام، يجب فتح باب الاستيراد على مصراعيه، إن دعاة إقفال باب الاستيراد وفتح باب التصدير بحجة تأمين أكبر قدر من العملة الصعبة لبناء اقتصاد هذا البلد لا يفقهون شيئاً بالاقتصاد أو التجارة. من جهة، استيراد السيارات، لهيات الأطفال وما شابه ذلك، ومن جهة أخرى تصدير البندق، التبغ، السمك،

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

وغيره...، إن الدنيا أخذ وعطاء، ومن لا يعطي لا يأخذ يا أيها المواطنين الكرام...».

في اليوم الخامس من الجولة كان يتحدث أمام رجالات الصناعة فقال:

«أيها المواطنون الكرام! في القرن العشرين هذا، عصر الذرة وعصر أنوار مصابيح الفلورسنت، الصناعة هي المعيار لتطور بلد ما. قال الشاعر بما معناه «قرع الباب بحاجة إلى يد». تشجيع الاستيراد لا يتفق ومبدأ دعم الصناعة المحلية. حريتنا القومية ستبقى رهينة بأيدي رجال الصناعة الأجانب. من أعطى بالأمس واليوم، لن يعط بالغد. كيف ستعمل الجرارات الزراعية إذا لم يتوفر لها قطع غيار؟ هل سنخضع لشروط الأجنبي يا أيها المواطنون الكرام؟ كرامتنا تحتم علينا إعطاء المزيد من الدعم للتصنيع... علينا إذن تطوير صناعتنا المحلية. وحيث أننا مازلنا حديثي العهد بالتصنيع، وغير قادرين بعد على منافسة الصناعة الأجنبية، لذا علينا أن نوفر المناخ المناسب لإنعاش حركة التصنيع المحلي. وذلك لا

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

يتم إلا برفع الرسوم الجمركية بقدر لا يسمح لأفراد الشعب بالخيار فيضطرون لشراء البضائع المصنعة محلياً بعيداً عن جو المنافسة. إن تطوير حركة التصنيع القومي يا أيها المواطنون الكرام...».

اليوم الذي يليه، كان يتحدث أمام وفد من أعضاء الغرفة التجارية فقال:

«أيها المواطنون الكرام! إن التطور الاقتصادي لبلد ما مرهونة بالمنافسة التجارية الحرة. لكن هناك فئة من الجهلة تنادي بحماية التصنيع المحلي من المنافسة الخارجية بوضع رسوم جمركية مرتفعة على السلع الأجنبية المستوردة. أيها المواطنون الكرام، علم الاقتصاد يقول إن لا تقدم ولا تطور بدون خلق جو من المنافسة الحرة. الإبداع مستحيل، مستحيل ثم مستحيل إذا انعدمت المنافسة... لا! لرفع الرسوم الجمركية، لا! لإغلاق باب الاستيراد. أيها المواطنون الكرام...».

وأمام جمع غفير من العمال تحدث فقال:
«أيها المواطنين الكرام، أيها الرفاق الأعزاء!
بادئ ذي بدء أريد أن أقف عند دعوة كثر الحديث
عنها هذه الأيام وتقول بضرورة إعطاء الأولوية لدعم
الزراعة بحجة أن بلدنا زراعي بالدرجة الأولى، ووضع
الصناعة والتصنيع في المرتبة الثانية بالأهمية، أيها
المواطنون الكرام، إنها دعوة مدسوسة مدروسة للقضاء
على فئة العمال في هذا البلد، وما العمال إلا ساعد
هذا البلد، والقضاء على طبقة معناه القضاء على هذا
البلد. أيها المواطنين الكرام، هلموا إذن لنقطع دابر
المتطاولين على عضد هذا البلد، وليعلم الجميع أن
الزراعة والصناعة متلازمان، وما الزراعة الصناعية
إلا الحل الأمثل لمشاكلتنا... يا أيها المواطنون
الكرام...».

كان رجل السياسة يتحدث أمام جمع من
أعضاء هيئات التدريس الجامعي والشباب فقال:
«أيها المواطنين الأكارم الأعزاء! إن دستورنا
ينص بوضوح على أن دولتنا علمانية. قد فصلنا بين

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الدين والدولة وسنحافظ دائماً على هذا الفصل أيها المواطنين الأعزاء! إننا باقون على العهد لمبادئ ثورتنا، ولن نفسح المجال للرجعيين أو نتنازل عن مكاسبنا في ظل دولتنا العلمانية، أيها المواطنون الكرام...».

في الأرياف، وأمام جموع غفيرة من أطفال الكتاتيب والرجال الملتحين، وآخرين من حملة التسايح، وقف يتحدث قائلاً:
«أيها المواطنون الكرام! إن هناك فئة جاهلة منحرفة لا تميز بين العلمانية والإلحاد، العلمانية ليست إلحاداً. نحن علمانيون وبنفس الوقت يا أيها المواطنون الكرام...».

وأمام الحضور في جمعية حماية المستأجر تحدث قائلاً:
«أيها المواطنون الكرام! واحدة من أهم مشكلات بلدنا المعاصرة، والتي نسعى لإيجاد الحلول

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

السريعة لها، ألا وهي تأمين المسكن للمواطن، يجب وضع حد لهيمنة أصحاب البيوت، فقد آن الأوان لتعديل قانون الإيجار والاستئجار لرفع الظلم عن المواطنين المستأجرين ووضع حد لجشع أصحاب المساكن.

أيها المواطنون الكرام، إن ارتفاع بدل إيجار المساكن لدينا لا يتناسب ومعدل الدخل الشهري للمواطن. في البلدان المتحضرة، بدل الإيجار لا يتجاوز أبداً عشرة بالمائة من الدخل الشهري للمواطن، أي عندما يكون الإيجار ستمائة ليرة شهرياً، فهذا معناه أن الدخل الشهري للمستأجر ستة آلاف ليرة، إن مطالبة أصحاب المساكن بإيجار مرتفعة قد حد من معدل تزايد السكان، لأن معظم شبابنا أحجم عن الزواج لعدم قدرته على العثور على شقة مناسبة بإيجار معقول. قريباً ستكون نهاية سلطنة أصحاب المساكن وسيُنصف المستأجرون، يا أيها المواطنون الكرام...».

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

اليوم الذي يليه، كان يتحدث في جمعية حماية حقوق أصحاب المساكن فقال:

«أيها المواطنون الكرام! أؤف إليكم نبأ مشروع قرار برفع بدل الإيجارات، إذ إنه على الرغم من ارتفاع الأسعار بنسبة تجاوزت الألف وخمسمائة بالمائة، فإن بدل الإيجارات بقيت كما هي ولم ترتفع كغيرها، وهذا مناف لأسس الحق والعدالة. أيها المواطنون الكرام...».

وفي أحد الأقاليم، حيث مني حزبه السياسي بخسارة انتخابية تحدث قائلاً:

«أيها المواطنون الكرام! كلنا يد واحدة في سبيل هذا البلد، لا فرق بين أن يفوز هذا الحزب أو ذاك، فالغاية واحدة والهدف مشترك. كلنا أبناء هذا البلد الواحد. كلنا أخوة وجنود مجندة نضحي بالغالي والرخيص لرفعة هذا البلد.

أيها المواطنون الكرام، لنكن دائماً يداً واحدة...».

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

اليوم الذي يليه، كان يتحدث من على منصة أقيمت في أحد الأقاليم احتفالاً بفوز حزبه بالانتخابات فقال:

«أيها المواطنون الكرام! ليعلم هؤلاء المدعين... الجاهلين... المارقين... أعداء الشعب... المتآمرين على أمن هذا البلد... مشعلي نار الفتنة بين أفراد هذه الأمة... ليعلموا جيداً إننا أيها المواطنون الكرام، نحن...».

انتهت الجولة الانتخابية، بعد أن دامت خمسة عشر يوماً، وعاد السيد رجل السياسة إلى بيت عشيقته فوراً. كان اسمها «سونا» وقد استقبلته كالعادة بالبكاء مع الإلحاح بأن يطلق زوجته ويعلن زواجه منها. السيد السياسي وبعد خمسة عشر يوماً قضاها بالخطابة الدعائية الانتخابية أجاب عشيقته قائلاً:

«أيها المواطنون الكرام!... سونا، سونا... حبيبتي، اصغ يا حياتي أنا لا أحب سواك... أنت روعي الغالية... أيها المواطنون... لا تبالي أنا لك

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

وحدك...، وعندما تزوجت من غيرك كنت جاهلاً...
أيها المواطنون الكرام... من أجل أولادي فقط...
سونا الكريمة... أيها المواطنون...».

وقضى الليلة التالية في بيت الزوجية، كانت
زوجته على علم بعلاقته الغرامية مع امرأة غيرها،
وكان يدور نقاش حاد حول هذا الخصوص. في تلك
الليلة، قال السيد السياسي لزوجته:

- أيها المواطنون الكرام!... أنا...

أصيبت زوجته بالدهشة، فقالت بحيرة:

- ماذا تقول يا سيد؟

- أنا،... زوجتي، ليس لي سواك... ليقبض الله

روحي... أيها المواطنون الكرام...

- عن ماذا نتحدث؟ ما هذا «أيها المواطنون

الكرام؟» ماذا دهاك؟

- حياتي... إنهم متقلبون، غير صادقين... أنت سند

هذه العائلة... صدقيني يا زوجتي... بدونك

أنا... أيها المواطنون...

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

دخل السيد السياسي إلى غرفة نومه. رأى نفسه في المرآة الكبيرة التي أمامه. أصابته الحيرة. هذه... هذه الصورة... صورته... صورته... أيها المواطنين الكرام... دوى صوت تحطم الزجاج. لقد تحطمت المرآة الكبيرة وأصبحت قطعاً صغيرة... صغيرة... هبت السيدة وعلى رأسها لفائف الشعر، واندفعت نحو الغرفة التي صدر منها صوت تهشم الزجاج.

كان الباب مغلقاً من الداخل. طرقته بقبضتها بشدة وهي تصيح:

- سيد!... سيد!

تكومت السيدة على العتبة.

سمع أنين من الداخل:

- أيها... الموا... الموا... الموا... أيها... الموا...

* * *

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

قلبي ينظر حُزناً للحديقة

فروع فرخزاد (*) - إيران

لا أحد يفكر في الأزهار
لا أحد يفكر في الأسماك
لا أحد يريد أن يصدّق
بأن الحديقة موشكة على الموت

(*) هذه القصيدة مترجمة عن ديوانها (إيمان بياوريم به آغاز فصل سرد - أي فلنؤمن بمجيء الفصل القارس) نشر مرواريد - تهران - 1990.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

وأن قلبها قد تورم تحت الشمس
وذهنها.. قد بدأ يخلو من الذكريات الخضراء
رويداً.. رويداً
وإحساسها.. شيء وحيد متمسوس في زاوية الحديقة

فناء دارنا وحيد
فناء دارنا
يتشاب في انتظار هطول غيمة مجهولة
وحوض دارنا خالٍ
النجوم الصغيرة الغرة
تتساقط من أعالي الأشجار
ويتناهى إلى الأسماع ليلاً صوت السعال
من النوافذ الباهتة لبيوت الأسماك
فناء دارنا وحيد
يقول والدي:
«مرّ بي الزمنُ
مرّ بي الزمنُ

لقد حملتُ عبئي

وقمتُ بواجبي»

وفي غرفته.. من الصباح حتى المساء

إما يقرأ «الشاهنامة» أو «ناسخ التواريخ»

يقول والدي لوالدتي:

«النقمة على جميع الأسماك والطيور

حينما أموتُ أنا

لا فرق في أن تكون الحديقة موجودة

أم غير موجودة

لذا يكفيني أنا راتبُ التقاعد»

ووالدتي.. حياتها بكاملها

سجادة مفروشة

عند عتبة رُعب الجحيم

إنها تبحثُ في عمق الأشياء

عن آثار أقدام معصية ما

وتعتقد أن خطيئة عُشبة ما

هي السبب في تلوث الحديقة

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

والدتي هي (خاطنة بطبعها)
إنها تدعو الله ليل نهار
وتقرأ الدعوات على الأزهار
وتقرأ الدعوات على الأسماك
وتقرأ الدعوات على نفسها
والدتي بانتظار الظهور
وعطاء ينزل عليها من السماء

أخي.. يدعو الحديقة مقبرة
إنه يسخر من مكابد الأعشاب
ويُحصي جثث الأسماك التي
تستحيل ذرات فاسدة
تحت جلد الماء المريض
إن أخي يعكف على الفلسفة
إنه يرى شفاء الحديقة
في تهديمها
إنه (....)

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

ويضرب الأبواب والحيطان بقبضتيه
ويحاول أن يقول:
بأنه مُعذَّبٌ ومُتَعَبٌ ويائس
إنه يحمل يأسه معه
كما هويته ومفكرته ومنديله وقداحته وقلمه
إلى الأزقة والأسواق
ويأسه صغير بحيث
يتلاشى كل ليلة
في زُحام الحانات

وأختي.. التي كانت صديقة للأزهار
كانت تفتح أسرار قلبها
لمجاميعهن الحنونة الصامتة
حين تضربها أمِّي
وتدعو عوائل الأسماك.. ضيوفاً
لأشعة الشمس والحلوى
إن بيتها الآن في الجانب الآخر للمدينة

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

إنها الآن في بيتها المصطنع
مع أسماكها الحمراء المصطنعة
وفي كنف حُبِّ زوجها المصطنع
وتحت أغصان أشجار التفاح المصطنعة
تهزج في أغانٍ مصطنعة
وتلدُّ أطفالاً عاديين
إنها.. كُلِّما تزورنا
وتتعلق أطراف ثوبها
بفقر الحديقة
تستحمُّ بالكولونيا
إنها كُلِّما تزورنا
حامل

فناء دارنا وحيد
فناء دارنا وحيد
طوال النهار
نسمعُ صوت الفريقعات

والانفجارات

جيراننا يسترون أحواضهم المصنوعة من الكاشي بأغطية
والأحواضُ هذه.. دون أن تعي بنفسها
مستودعات سرية للبارود
وأطفال محلتنا
حقائب مدارسهم
مملوءة بقنابل صغيرة
فناء دارنا مُصاب بالدوار

إني أخاف من زمنٍ

قد أضع قلبه

أخاف من تصور عدم جدوى كل هذه الأيدي

ومن تجسّد غرابة كل هذه الوجوه

إني وحيد

كالطالب الذي يجنّ حباً بدرس الهندسة

وأفكر في أن الحديقة لا بدّ أن تُؤخذ إلى المستشفى

إني أفكر..

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

إني أفكر..

إني أفكر..

وقلب الحديقة قد تورم تحت الشمس
وذهنها.. قد بدأ يخلو من الذكريات الخضراء
رويداً.. رويداً.

ترجمة آزاد البرزنجي

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الجرمة والعقاب

كوميديا من مشهد واحد

ميخائيل زاشينكو - روسيا

ترجمة مرتضى سيدعمر وف

المشاركون:

غوربوشكن - مدير التعاونية التجارية.

زوجة غوربوشكن.

أخو الزوجة.

بنانوف - تاجر.

الجار.

شخص مجهول.

العسكري.

سائق شاحنة الأثاث المستعمل.

اشقة غوربوشكن. المائدة، على الحائط لوحات فنية.
المصباح معلق بأباجور من حرير. يجلس غوربوشكن
مع زوجته وأمامهما إبريق الشاي. غوربوشكن يتصفح

- 1 -

غوربوشكن : (يقراً) آه... يا... أي، ما... أنت...
كيف.

الزوجة : ماذا هناك أيضاً؟

غوربوشكن : (يقراً) ماذا.. أنت، أنت، أيوا، آه، يا
له.. يا له..

الزوجة : ما لك؟ تحدّث بوضوح. ماذا حدث؟

غوربوشكن : (يقراً) أنت... أنت، نعم، هو هكذا...
آه.

الزوجة : أكاد أجنّ من هذه الأصوات. ما هذا؟
وماذا بعد...؟

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

غوربوشكن : ها هو - أقسى حكم، أي حكم الإعدام
لسرقة أموال الشعب.

الزوجة : وما دخلك أنت؟ ولماذا تغرد؟

غوربوشكن : وهل قلت إن لي علاقة بالموضوع؟ يا غبية،
أنا أتحدث بشكل عام، للسرقة حكم
الإعدام.

الزوجة : ماذا تسرق أنت؟ هل هذه سرقة؟! يحدث
مرة واحدة في السنة أن يأتي بشيء تالف،
وبعدها... هو لا يستطيع أن يقرأ الجرائد،
ويحلم في نومه بحكم الإعدام.

غوربوشكن : أنا أتحدث بشكل عام، هذا ما أقوله: لقد
صدر أمر من حكومة الثورة.

الزوجة : أمر حكومي؟! المدراء الآخرون يسرقون
ويسرقون ويسرقون، امتلأت بيوتهم.

غوربوشكن : أنا لا أسرق - أنا؟ برأيك... أنا أشم
الورود؟ يا غبية، ما هذا؟... وما هذا؟...
وماذا عليك من الفساتين؟ (يقرأ في
الجريدة) آه... يا لك.. يا لك...

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

الزوجة : أتيت بشيء قليل إلى البيت، لا ذنب هنا ولا عيب. أما الآخرون فيبيعون الأشياء المسروقة، ورغم ذلك يقرؤون الجرائد بدون صياح.

غوربوشكن : والسكر؟ هل بعت السكر المسروق؟
(ينظر في الجريدة من جديد) يا لك...
يا لك، يا لك من...

[يدق الجرس، تُسمع أصوات في الخارج]

الزوجة : جاء إليها شخص ما.

غوربوشكن : من الذي يجيء في الصباح الباكر؟ أليس هو أخاك؟ يا له من لئيم (يخفي قطعة الجبن).

الزوجة : أخي سيأتي متأخراً.

غوربوشكن : أيوا... هذا هو بنانوف. أحضر لي نقوداً...
للسكر... يا لك... يا لك من...

الزوجة : (تسقط الشوكة) لا، هذا ليس هو، سقطت الشوكة ربما ستحضر امرأة وأنا أثق بهذه العلامة.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

[يدخل العسكري، تتأوه زوجة غوربوشكن.
وغوربوشكن يصبّ الشاي وينسى إغلاق
الإبريق. بلبلة وارتباك]

- 2 -

العسكري : معذرة، أيها المواطنون، لا تخافوا، أرسلني
المحقق. مَنْ هو المواطن غوربوشكن؟

[غوربوشكن يشير إلى زوجته، والزوجة
تشير إلى زوجها. ارتباك]

الزوجة : هذا هو، هو غوربوشكن.

العسكري : إذن، أرجو التكرم... لتفضل معي... أمر
المحقق بحضورك العاجل. وهذا هو أمر
الاستدعاء.

الزوجة : المحقق؟!!

غوربوشكن : يا لك... يا لك... يا لك... (يأخذ الورقة
مرتعشاً، ويقرأ) أ... أ... أ... لا
أستطيع أن أقول، تتقافز الحروف أمام
عيني. أرجو... حضورك... في
قضية...

الزوجة : في قضية؟!

غوربوشكن : لقد قلت لك... قلت لك... ولكنك لم
تثقي بي (ينظر إلى الجريدة) يا لك...
يا لك... ويمشي في الغرفة من ركن إلى
ركن).

العسكري : أمروا بحضورك في الساعة العاشرة.

غوربوشكن : (يلبس مستعجلاً: ويدخل يده في الكم
الآخر) يا لك... يا لك...

الزوجة : خذ معك ولو قليلاً من الطعام.

غوربوشكن : (يلبس معطفاً، يدخل الزر الأعلى في
الفتحة السفلى) أنا مستعد، قدني،
يا رفيق!

[يذهب إلى الباب]

- 3 -

الزوجة : (وحدها) ما هذا؟ يارب! (تمشي في الغرفة
من ركن إلى آخر، ثم تأخذ كيساً مربوطاً
من وراء اللوحة وتضعه مرة أخرى في

مكانه) أين أضع هذا؟

[يرن جرس الهاتف]

ممن هذه المكالمة؟ آه، أيوا، نعم، ألو...
أيوا، ألو من هذا؟ يا أخي، هل هذا أنت
عند الهاتف؟ هذا... غريشا... هذا...
هو... أتفهم، لا، أسوأ... نعم، نعم،
الآن، لا أعرف، لا أعرف شيئاً، تعال إلي
هنا بسرعة. (تأخذ الكيس من وراء اللوحة
مرة أخرى) طيب، أين أضع هذا؟ (تخرج
بسرعة).

[ويدخل التاجر بنانوف وفي يده نقود]

- 4 -

بنانوف : يا له من كلب، يعيش حياة فاخرة، وببكي،
يا له من لص. يريد نقوداً، هات وهات. ربما
هو نفسه سرق السكر، وعليّ أن أدفع.
يالأسف. (يسعل)، ويجبرني أن أنتظره
نصف ساعة. (يجلس على الكرسي) وأما
المأكولات فالمائدة مليئة منها، يا ماما! ربما

يمضغ دون تعب... أما أنا فعلياً أن أحضر له النقود . يقترب من الطاولة، ويأكل ويتلفت حواليه بحذر). ويكتبون رسائل إلى أمثاله!! (يقرأ ورقة الاستدعاء المتروكة) «عاجل، إلى المواطن غوربوشكين... أرجو التكرم بالحضور للإدلاء بشهادتك في قضية «شوكين»، المباحث «كيمين». قولوا، من فضلكم، لماذا يدعون «هذا الحبشي» كشاهد... أما أنا فلماذا أتيت إليه، إذن، ليأتي إليّ بنفسه. (يتجه إلى المخرج، ويرجع). المأكولات هنا! (يأكل من جديد، ويتجه إلى المخرج مرة أخرى ويرجع من جديد، ويضع الزبدة على الخبز، ويلتهمه بسرعة).

[تدخل زوجة غوربوشكين، وفي يدها كيس مربوط]

- 5 -

الزوجة : (خائفة) أه!... من... من هذا؟...

بنانوف : (يأكل الخبز بالزبدة) إحم... إحم...

الزوجة : من هذا؟ سأصرخ!

بنانوف : (يمضغ) إحم... معذرة... هذا... أنا...

لحظة... سأقول الآن... اللقمة توقفت في
حلقي...

الزوجة : وماذا تريد؟

بنانوف : أنا آسف، اللقمة في حلقي، توقفت. أنا

بنانوف. أتيت إلى غريغوري
إيفانوفيتش... بل إن غريغوري
إيفانوفيتش...

الزوجة : آه، ألا تعرف؟ أي... أيوه... غريغوري

إيفانوفيتش تحت التوقيف.

بنانوف : في الحبس... كيف في الحبس؟ إذن،

سأذهب، إذن... لقد فكّرت بعكس هذا
تماماً، فكّرت أنه شاهد في القضية، يا له
من ملعون... (يغادر مستعجلاً).

- 6 -

الزوجة : (تضع كرسيّاً على الطاولة، وتخفي الكيس

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

وراء المصباح) أضعه هنا أو...
[يدخل الجار]

الجار : إحم... إحم...

الزوجة : من يا ترى؟ من هذا؟

الجار : ماذا بك؟ يا أنا فاسيليفنا، لماذا تخافين؟
ألا تعرفين جارك؟

الزوجة : آه، هذا أنت... آسفة.

الجار : لماذا صعدت إلى السقف؟ هذا أنا... أنا
آسف؟

الزوجة : هذا، يعني، أنا... هكذا أنظر ماذا هنا...
بيت عنكبوت.

الجار : نعم، لأجل هذه الأمور تصعدين إلى
السقف... رأيتُ أن العسكري رافق زوجك.
فقلت في نفسي آتي وأطمئن السيدة. هل
تمّ التفتيش؟

الزوجة : (قلقة) التفتيش؟ لا، لم يحصل.

الجار : إذن، سيكون.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الزوجة : يارب، هل سيكون التفتيش في الحقيقة؟
الجار : طبعاً، أتذكرين «شوكين»؟ إنه هو الذي
سرق؟ يقولون إنهم فتشوا مسكنه، وتمت
المصادرة الكاملة لممتلكاته.

الزوجة : المصادرة الكاملة؟!

الجار : ولكن أنت لا تقلقي، وقد جئت إليك
خصيصاً لأطمئنك، إنك سيدة، كما يقال،
في عمرها الزاهي... يمكنك أن تعجبي أحداً
ما، ربما قد يتزوجك أحد. يمكن أن تحدث
أشياء كثيرة.

[يدخل أخو الزوجة]

- 7 -

الأخ : (مستعجلاً) ماذا حدث؟ ماذا؟ ما هي
القضية؟ (يشير إلي الجار) من هذا؟

الزوجة : هذا جارنا.

الجار : قررت أن أطمئن السيدة قليلاً. رأيت
العسكري قد رافق السيد، وحسبت أن

- 291 -

- السيدة قلقة جداً... فقلت آتي وأطمئنها.
- الأخ** : (يخاطب أخته) أقول، القضية ما هي؟
- الزوجة** : أنا شخصياً لا أعرف، يا أخي.
- الأخ** : دعينا من مكر النساء «لا أعرف»! تذكرني ماذا كان عنده.
- الزوجة** : صراحةً، لا أعرف، وأنا نفسي محتارة. كان طبعاً بعض الأشياء سكر، صابون... ربما... طبعاً...
- الأخ** : إذن هذا سيء... سيئ تماماً... والآن لا بد من عمل شيء ما.
- الجار** : آه، أنا أقول إنه من الممكن أن تتم الآن المصادرة الكاملة لممتلكاتكم.
- الأخ** : ماذا؟ المصادرة؟! أيوا، وأنا أقول إنه لا بد أن نفعل شيئاً ما بسرعة. بيعي كل ما تملكين الآن. (يسحب بساطاً من تحت رجل الجار والأخت، ويطويه).
- الزوجة** : هل هذا صحيح، يا أخي؟ لا بد أن نبيع كل ما نملك؟

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الجار : كما أعرف... عليك أن تبيعي كل ما عندك
عن آخره، أما مكعبات السكر فأنا آخذها.
الأخ : السكر لا يباع، أنا آخذ السكر بنفسني.
(يقترّب من الهاتف) ألو... سبعة - واحد
- ستة - ثلاثة - اثنان.

الجار : إذن، الملابس، أيمكنني أن آخذها؟
الأخ : (يقول لأخته) يا «نيوشا»، أريه المعطف
والبدلات، البدلات تناسبه. لكن أسرعني،
أسرعني فقط.

[زوجة غوربوشكن تعرض البدلات]

الجار : (ينظر في الضوء) البدلات هذه، طبعاً،
قليلة الأهمية. أردت أن آخذ شيئاً يمكن
استخدامه مدةً أطول... طيب، كم تريدون
لأجل هذه الخرق البالية؟

الأخ : (يتحدث بالهاتف) ألو، «فيودر باليتش»؟
نعم، هذا أنا... ماذا؟ نعم، هكذا بالضبط.
كل شيء يباع. كل شيء للبيع الشامل
والعاجل. نعم، هنا الظروف مختلفة. نعم،

الدوايب أيضاً. اللوحات؟ واللوحات أيضاً.
ماذا؟ بقلم من؟ أي قلم؟ أقلام؟ يبدو أنه
لا... لا توجد أقلام. (ينظر إلى اللوحة)
لا، اللوحة بدون قلم. والإطار عادي، أما
الأقلام فلا توجد. ماذا؟ آه، وهذا (يتحدث
إلى أخته) إنه يتكلم عن أقلام ما.

الزوجة : (غاضبة) أية أقلام؟ ليس لدي أي قلم.
الأخ : ألو، عند الأرملة لا توجد أقلام. ماذا؟ آه،
هكذا؟ (يتحدث إلى أخته) إنه يسأل من
هو الرسام؟ من هو الفنان الذي رسم
اللوحات؟

الزوجة : أية أقلام؟ بدون أقلام.
الجار : لا، لا... هذه هي لهجة الفئات البرجوازية
السابقة، هم كانوا يعبرون عن أفكارهم
هكذا: هذه الصورة بقلم من؟ أي بكلمة
أخرى: من هو الذي رسم اللوحات؟ شيء
مضحك والله.

الزوجة : والكلب يعرف من الذي رسمها.

الأخ : اسم العائلة للرسام. إنه يسأل عن اسم عائلة الرسام. أجيبني بسرعة فقط.

الزوجة : يا، أنا لا أستطيع أن أفكر في هذا... هذا، كيف هو اسم العائلة يبدأ بـ «آ»، أو، اصبر... يبدأ بـ... آخ...

الجار : أخوف؟ تشيخوف؟!

الأخ : (بالهاتف) اسم العائلة للرسام يبدأ بـ «آ».

الزوجة : اصبر، يبدأ بـ «آي».

الأخ : يبدأ بـ «أي». «أيوازوفسكي»، طبعاً، هذا هو، أيوازوفسكي. باختصار في الصورة الأولى غابة بتولا جافة غريبة، حوالي أربعين متراً من أخشاب البتولا الجافة، وفي الأخرى، معذرةً، ماء عادي. ولا يقل سعر الغابة عن ثلاثمائة، أما بالنسبة للماء، فسوف نتفق، إذن، ننتظرك، يا فيودر باليتش.

الجار : أما هذه البضاعة فأنا آخذها، يا أنا فاسيليفنا، وأما بالنسبة للزوج فلا تقلقي.

انظري للأمر هكذا... مثلاً، أنا شخصياً لا
يخيفني أبداً... أفكر فقط في أن لا يحكم
عليه بالإعدام، في الحقيقة، لا أتحمل حكم
الإعدام، وأما غيره فلا بأس به.

الأخ : هل دفع نقوداً، هذا المتشرد؟ لماذا يتحدث
في هذا الموضوع؟

الجار : دفعت، دفعت، لا تشك فيّ. (يغادر).

الأخ : أعطيني النقود. لماذا أنت تمسكينها؟

الزوجة : لا بأس... أتمنى لو أنني أمسكتها.

- 8 -

الأخ : هنا، لا بد من السرعة العاجلة. هنا لا بد من
السرعة الكاملة والشاملة. الآن هذا يأخذ
الأثاث، وهذا يأخذ الدواليب، وأما هذا
فليأخذ البدلة. وأنا أيضاً آخذ شيئاً ما. لا
أتركك لوحدي، بقدر إمكانياتي، سأساعدك
بما أستطيع.

الزوجة : أبوا، أشكرك، يا أخي. ولكن كيف؟...
هكذا؟ كل ما نملكه يضيع وأنا أتفرج...

هكذا.

الأخ

: يا أختي إنك لا تستطيعين أن تفهمي أشياء كثيرة. الرجل وقع في أمر صعب، ربما تسبب للدولة بأضرار غير معدودة. ولا يمكننا وإياك أن نضيع دقيقة واحدة. ولا بد من عمل جاد. وإذا جاءوا - لا شيء لديك. والزوج؛ في فقر تام، وهي جالسة على السرير، أيوا، ما هي الملابس التي تلبسينها، ما هذه الملابس؟ لبست، وعلقت على نفسك مثل الجمل، عليك أن تلبسي فساتين عادية ورخيصة، أما الباقية فبيعيها كلها... وأين تضعين هذه الأشياء؟ أعطيني إياها.

[الزوجة تخرج. ويدخل شخص مجهول، وهو يسمح يديه بجانيبه، إنه صاحب محل للأثاث المستخدم]

- 9 -

الأخ

: «فيودر باليتش»، تشرفنا، أهلاً وسهلاً،

تفضل، انظر إلى الأثاث، الرجاء بسرعة،
السرعة فقط.

الشخص المجهول : طيب... هذا يمكن شراؤه... طيب...
اللوحات (ينظر إليها... ممكن... كم
تريدون لكل الأشياء القديمة هذه؟

الأخ : هناك توجد غرفة نوم فخمة للنساء أيضاً.
الشخص المجهول : (يفتح الباب وينظر إلى الداخل) ممكن،
وهذا أيضاً ممكن. وكم تريدون لكل هذه
الأشياء المستخدمة؟ خذوا ثلاثة.

- 10 -

الزوجة : (تدخل وعليها ملابس قديمة) لا... ثلاثة؟
إنه يشتري بئس بخس جداً، لا يساوي حتى
أجرة نقلها إلى البيت، ثلاثة فقط؟!

الشخص المجهول : إذن يا سيدتي، سأدفع أربعة، انتهى
الكلام.

[يأخذ اللوحات ويضع الكراسي على
الطاولة]

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الأخ : وافقي، يا أختي، كل دقيقة هي عالية بالنسبة لنا. اکتبي لي ورقة استلام النقود.

الزوجة : يا «باتيوشكي»، ما هذا؟ كيف... هكذا؟

[تكتب ورقة، وتأخذ النقود]

الشخص المجهول : إذن، سأرسل العربية حالاً. (يغادر)

الأخ : أرسل العربية... لكن بسرعة.

- 11 -

الأخ : يا أختي، أهم شيء هنا - السرعة. وتعرفين طبيعتي، أنا لا أحاول إثارة البلبلة، ولكنني أفهم كيف أدبر الأمور. هنا لا بد من عمل عاجل.

الزوجة : أيوا، أنا أفهم طبعاً، أفهم وضعك، ولكن ممتلكاتنا... ويا خسارة! والآن كيف؟... في شقتي لا شيء أجلس عليه؟

الأخ : آه، نعم، الشقة؟! أما الشقة فاشترتيموها بعشرة آلاف. والآن لا بد من بيع الشقة أيضاً. (يتصل بالهاتف). ألو، صفر -

- 299 -

صفر - صفر - واحد - خمسة، ألو. أنا،
هذا أنا. الشقة وفيها غرفتان، بجانب
المباني الجديدة (يتحدث إلى أخته) لا
تمسكيني، (يتحدث في الهاتف) لا الأثاث،
للأسف، قد تم بيعه. والبدايات أيضاً مباحة.
لا، لا، قد تم بيع كل هذا، الأرملة باعت
كل شيء، إذن، تعال ونتحدث عن بيع
الشقة.

[يدخل الجار، وهو لابس بدلة جديدة
واسعة]

- 12 -

الجار : أنا خائف، إن هذه البدلة واسعة بعض
الشيء. ما رأيكم؟

الأخ : البدلة مناسبة لك تماماً.

الزوجة : نعم، إنها تناسبه تماماً.

الجار : لا، أنا أشعر أنها واسعة.

الأخ : من أين هي واسعة؟ (يمسك البدلة من
الظهر) بالعكس، إنها ضيقة عليك قليلاً.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الجار : (يكاد يبكي) من أين ضيقة، لو سمحت؟
الأخ : من الواضح، أنها ضيقة، حتى إنك لا
تستطيع أن تتنفس.

الزوجة : البدلة تناسبه تماماً.

الجار : لا، أتعرفون... إنها ليست على مايرام،
تضايق كتفي، أشعر أنها ضيقة عليّ.

الأخ : أتعرف أنك تعارض نفسك، قبل قليل قلت
إنها واسعة.

الجار : هل أنا قلت إنها واسعة؟ لا، بل أنا قلت
إنها ضيقة، والتنفس فيها صعب.

الأخ : أتعرف، نحن لا نفهمك. (يرفع يده عن
البدلة) كيف تقول إنها ضيقة؟ من الواضح
أنها واسعة.

الجار : أو أنها واسعة. والكلب يعرفها، في
الحقيقة إنها واسعة.

الأخ : لا يظهر أنها واسعة، انظر إن البدلة تلائم
جسمك تماماً، وأنت لا تعرف ماذا تريد.

الزوجة : إنه لا يعرف ماذا يريد.

الجار : (يكاد يبكي) إذن، آخذ قبعة أيضاً
كمكافأة، القبعات مثلها تعجبني قليلاً.

الأخ : خذ القبعة، ولكن بسرعة، فقط امش
بالجوارب.

[الجار يقف على الطاولة ويفك رباط
القبعة]

الزوجة : ما هذا؟ ماذا يحدث أمام عيوني؟ كيف
وقفت على الطاولة، يا شيطان؟!

الجار : معذرة! (يخرج ويده القبعة، وفي طريقه
يأخذ كرسيين)

الأخ : ضع الكراسي مكانها، وهي مباعه. الأثاث
كله مباع.

الجار : معذرةً.

الأخ : المكتبة أيضاً مباعه، لا تلمس الأشياء بيدك
كل شيء حولك مباع. الشقة فقط باقية
للبيع.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الجار : أما الشقة هذه فقبلتها إن كانت بالتقسيط.
مازلت معجبا بشقتكم.

الزوجة : يا إخواني، ما هذا؟ كيف؟ وأنا، مثلاً، أين سأكون؟

الأخ : يالليل، هذا صحيح. فأين ستكون الأرملة؟
الجار : عند الحاجة، يمكن تأجير جزء من الغرفة هنا.

الأخ : اكتب ورقة شراء الشقة بالتقسيط، أو أكتب أنا، وعليك التوقيع فقط. لا تمسكني بيدك. (الجار يخرج ويده القبعة والورقة).

- 13 -

الأخ : والآن يبدو أن كل شيء تم على مايرام، وهذا يحمل الأثاث، ويمكنك التنفس بهدوء.

الزوجة : هذا... ما هذا؟ ماذا حدث؟ إذا دعوني إلى المحكمة، فماذا سأقول؟

الأخ : إذا طلبوك إلى المحكمة، فقولي إنه لا يوجد شيء، هذا هو كل شيء.

- 303 -

الزوجة : أو ربما سأقول لهم إني في إعالة أخي.
الأخ : ماذا؟ في إعالة أخي؟! لا تذكريني أبداً.
انسيني، وأنا غير موجود. يا إلهي...،
يالليل...، سيقولون الأقرباء... القرابة...
لا... ربما عليك أن تتزوجي، اسمعي، ألا
تستطيعين الزواج بسرعة؟ بسرعة فقط.

الزوجة : كيف هذا؟

الأخ : لو تزوجت بسرعة فسيكون كل شيء رائعاً،
والأغراض لا توجد، وأنت بنفسك في إعالة
زوجك، هكذا. ألا يوجد أحد من الأغبياء
هنا؟

الزوجة : يا أخي، ماذا تقول؟

الأخ : بسرعة فقط، بسرعة، بسرعة. من يوجد
لديك؟

الزوجة : كيف هذا؟

الأخ : طيب، مثلاً، هذا الجار الذي جاء، كيف هو؟
بسرعة أعتقدين أنه يريد الزواج؟ طيب،
ناديه، بسرعة، بسرعة.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الزوجة : ما هذا؟ يا إلهي! كيف هذا؟ ها هو قد جاء بنفسه.

- 14 -

الجار : والله، لا آخذ البدلات، كل الناس يضحكون عليّ.

الأخ : كف عن الشكوى، ومن الأفضل... قل لي، لماذا أنت تأتي إلي أختي كثيراً؟ إنك تضر بسمعتها بمجيئك.

الجار : معذرةً، كيف هذا «كثيراً»؟ جئت خلال الشهر مرة واحدة فقط، وذلك لأطمئن السيدة.

الأخ : «لأطمئن السيدة»، نحن نعرف هذا الاطمئنان، ويكذب أيضاً... إنه جاء مرة واحدة فقط، وهذا الوقح يأتي للمرة الثالثة وأنا حاضر! ويضر بسمعتها. طيب، إذا كانت تعجبك فقل... هكذا.

الجار : يعني، معذرةً، من يعجبني...

الأخ : من؟ أختي! أقول لك، إذا كانت أختي

- 305 -

تعجبك فخذها وتزوجها.

الجار : هل... هل قلت إنها تعجبني؟

الأخ : نعم، قلت قبل قليل.

الجار : أنا؟ أتعرف... قلت عن البدلة وبمعنى

معاكس. قلت إن البدلة لا تعجبني.

الأخ : لا تكثر الكلام، قرّر وتزوجها، إذا كانت

تعجبك، لكن بسرعة، فقط بسرعة عاجلة.

الجار : (يكاد يبكي) كيف هذا، ارحمني! لماذا

أتزوج؟ لا أفهمك في الحقيقة.

الأخ : لا يوجد شيء للفهم، خذها وتزوجها!

الزوجة : إذا كان هو لا يريد فلماذا الحديث؟

الأخ : كيف لا يريد؟ إنه يريد، ولكنه يخجل.

الجار : والله، لا أريد... لا أفهمكما. كيف؟...

هكذا!... لم أقل شيئاً بعد، لماذا أنت

تضعني حيث تريد؟

الأخ : أيوا، عليك أن تقول... ها أنت، قل أريد

أن أتزوج، ولا أمنعك عن القول.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الجار : لا، أنا لا أفهم أي شيء، في الحقيقة، لا أريد... لا أريد الزواج، ولماذا أتزوج فجأةً كغبي؟ بالله عليك، لماذا تزعجني؟

الزوجة : إذن، ولماذا الحديث؟

الأخ : يا لها من امرأة مثيرة! ولكنني لا أفهمه، وإذا لم يكن عندك ذوق يا رجل فأفصح، ولا تضلل الناس.

الجار : أنا... أنا لا أضلل الناس، ولدي ذوق... ولكنني أقول...

الأخ : أليديك ذوق؟ لا... أضحكتني، يا لهذه المرأة المثيرة الممتعة الرائعة! وقامتها، ما هذه القامة الجميلة! لا، إنني أرى أنك لا تفهم شيئاً في النساء.

الجار : لا، أنا أفهم... وأعترف أنها هكذا، أعني مثيرة... ولكنني فقط... لا أعرف بصراحة، كيف...

الأخ : انظر، كم هي طيبة، ومشيتها جميلة، غيرها قد تمشي مثل الجمال، أما هي فتضع

رجليها بهدوء وثقة، واحد اثنان، واحد
اثنان.

الجار : أفهم هذا وأعترف، طبعاً، إنها تعجبني،
ولديّ ذوق... ولكن كيف هذا فقط،
ارحميني...

الأخ : يا أختي، تعالي، أمسكي يده.

الجار : كيف هذا؟ أنا في الحقيقة مندهش...

الأخ : وأيضاً... يمكنك الطلاق في أي وقت.
فلماذا تكثر الحديث، أنا لا أفهمك.

الجار : أيوا، إذا كان الطلاق ممكناً، فلعلي أتزوج.

الأخ : طبعاً، تتزوج، بسرعة، فقط بسرعة.
يا «نيوشا»، أسرع في الحال إلى قسم
سجل الأحوال المدنية، وخذي من هناك ورقة
الطلاق... أيوا... ويمكنك هناك بيع الأواني
المنزلية لأي شخص....

الزوجة : كيف هذا... (.... ويخرجان).

- 15 -

الأخ : ما هذا؟ تشتكي وقد تزوجت بامرأة رائعة.

الجار : لا، إني قلت فقط...

الأخ : لا داعي للقول، تزوجت وانتهى الأمر.

الجار : لو سمحت، لو سمحت... طيب، تزوجت،

ولماذا أشتري البدلات منها؟

الأخ : لتلبسها في شهر العسل.

الجار : ولكنني دفعت فيها مالا، كما أنني أتزوج

والبدلات هذه أحصلها مجاناً. هذا يعني

أني اشتريت البدلات من نفسي؟! لا،

أتعرف... أنا لست موافقاً...

الأخ : في البداية اشتريت البدلات، وبعدها

تزوجت، فلماذا تعكر الماء، وتضلل الناس.

الجار : كيف هذا! لا، لا، أنا غير موافق. أنا

أتزوج، فهذا يعني أن البدلات لي. إذن رجّع

نقودي، وإلا فياني لن أتزوج.

الأخ : خذْ وكُلْ... ويريد استعادة النقود! وأختي

ربما أخذت ورقة الطلاق، وربما كان عندها

عزة نفس حساسة، وهذا قد لا يتزوج...

الجار : كيف هذا... وقد دفعت القسط الأول من

ثمن الشقة. هكذا؟ كيف؟ والله أنا لا
أستطيع هذا... أنا... أنا..
الأخ : لماذا تحتدّ تشتعل؟ طيب سأعطيك نصفها.
[يدخل سائق شاحنة الأثاث المستعمل]

- 16 -

السائق : هل هذا هو الأثاث الذي سأحمله؟
الأخ : نعم، هذا هو.
الجار : ماذا؟ الأثاث؟ لماذا تبيعان الأثاث؟ لماذا
بعتما أثاثي؟ والله لن أتزوج. انظروا ماذا
يفعل - يسقط أثاثي.
الأخ : لماذا تأخرت وضيعت وقتك؟ وأضررت
بسمعة السيدة بسلوكك؟ لو تزوجت قبل
فترة لبقى الأثاث عندك.
الجار : كيف قبل فترة؟ وقلت بنفسك الآن إنه عليّ
أن أتزوج.
الأخ : ألا تستطيع أن تفكر في الموضوع بنفسك؟
والآن عليك تحمل المسؤولية في كل هذا!
الجار : بالله، كيف؟... هكذا!

الأخ : يا لك من... انظر العروسة جاءت.

- 17 -

الجار : يا «أنا فاسيليفنا»، ما هذا؟ لا أفهم شيئاً؟
ليتركوا أثاثي.

الأخ : الأثاث مباع، ولماذا هذا الحديث. (يتحدث
إلى أخته) هل أخذت ورقة الطلاق؟ أجيبي
بسرعة؟

الزوجة : نعم، أخذتها، وبعث أواني المطبخ للجيران.
الجار : (يصيح) أواني المطبخ؟ ولماذا بعث أواني
مطبخنا؟ وكيف نأكل؟

الأخ : (يتحدث للأخت) يا له من عريس بخيل!
كيف بعنا وتاجرنا، وهو يصيح مثل البومة.
أنا تعبت اليوم - رأسي تؤلمني.

الزوجة : ولماذا علينا أن نرضى؟

الجار : أيوا، هذا صحيح. إذن، ليرجع نقودنا.

الأخ : طيب، اسكت، سأعطيك نصفها. (يتحدث
للسائق) وهذا أيضاً، أخرجوا هذا أيضاً.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

الجار : في الحقيقة، رأسي مثل الدوامة، لا أفهم شيئاً.

الأخ : ولو.. اقترب من العروسة، لماذا أنت واقف مثل...
مثل...

الزوجة : لماذا تصيح على الرجل، انظر، خوفته.
(تقترب منه وتتحدث معه بلطف).

الأخ : يا أختي، ادعى بعض الضيوف، نريد أن نرقص قليلاً. (الأخت تخرج).

الجار : والله، أنا لا أريد أن أرقص، مزاجي اليوم غير مناسب، وأنت تجبرني على الرقص.

الأخ : ولماذا تزوجت، ما كان عليك أن تتزوج.
[يدخل غوربوشكن]

- 18 -

غوربوشكن : (يغني) يدقّ الجرس، يدقّ الجرس، ويقول
أخطأ شبيبتني...

الزوجة : غريشا!

غوربوشكن : (لا يلاحظ الفوضى في الشقة) تحدثوا معي

- 312 -

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

بكل لطف، وباحترام شديد. قالوا: «نعتذر لأننا لم نرسل الدعوة عن طريق البريد، نعتذر، لقد احتجنا إليك كشاهد في القضية بصورة عاجلة. وأنا قلت: نعم، طبعاً وأتيت كشاهد. أقول، يدقّ الجرس...، وأقول لهم: أنا شاهد في أي قضية؟ وأنهم ليتحدثون معي باحترام، وبصورة جميلة، يقولون: قل من فضلك كل ما تعرف عن شوكن، الذي سرق كثيراً خلال فترة عمله القصيرة. وأقول، تفضلوا، وأخذ كرسيّاً وأجلس هكذا... بجانب الطاو... (ينظر خائفاً إلى الغرفة الفارغة) ما هذا؟ أقول ما هذا؟

[ينسحب أخو الزوجة بهدوء]

الزوجة: هذا... فكّرنا أنه... هذا... غريغوري غيفانوفيتش...

الجار: في الحقيقة، رأسي مثل الدوامة.

غوربوشكن: (يصيح) ما هذا؟ ماذا يجري في شقتي!!

[يدخل السائق]

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

السائق : هذا هو كله؟

[الجميع واقفون وأفواههم مفتوحة]

1936-1935

* * *

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

الأبواب(*)

سيوژمي زرياب - أفغانستان

ترجمة محمد اللوزي

كان قلبي في ذلك اليوم طافحاً بالأسى، حتى

*) العنوان الأصلي بالفارسية: «آدم ها وخانه ها»، ضمن: نشر دري أفغانستان: سي قصة، نشر علي رضوي غزنوي، انتشارات بنياد هرنج إيران، رقم السلسلة 278، طهران، إيران، 1978م.

*) ولدت في كابل بأفغانستان سنة 1949م. وحصلت على الإجازة في اللغة الفرنسية وادابها من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة كابل. ثم تابعت دراسات العليا بفرنسا، حيث حصلت على دكتوراه السلك الثالث في الأدب الفرنسي المعاصر، وشهادة التبريز في اللغة الفرنسية. كانت توقع قصصها قبيل زواجها باسم مذكر (سيوژمي رؤوف). وبعد زواجها بالكاتب الأفغاني المعروف «رهنورد زرياب»، أصبحت توقع أعمالها الأدبية باسم «سيوژمي زرياب». وهي أستاذة للغة الفرنسية. وقد نشرت عدة قصص قصيرة في الصحف والمجلات الأفغانية.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

أحسست كأن الهموم قد اندفقت في أعماقي منذ
ولادتي. أحسستُ كأن الهموم قد ضاعفت من حجمي
وخلقت مني إنساناً ضخماً.

وجدت نفسي كالعادة في الزقاق. كانت أبواب
المنازل مغلقة، كُتِبَتْ عليها أسماء بحروف صغيرة
وكبيرة.

خَفَّفْتُ من سرعة قدمي؛ وأمام كل باب أتوقف
عنده، كنت أقرأ اسماً ثم أتمم به بين شفتي.

بدأت الأسماء تتلاحق وتصطفُ في ذهني. بدا
لي ذهني فهرساً ضخماً من الأسماء، خيّل إليّ أنني
غدوتُ فهرساً من الأسماء يمشي.

كان العابرون ينظرون إليّ بتعجب، ظانين أنني
أبحث عن اسم ما في منزل ما.

اقترب مني أحدهم، وسألني فاحصاً:

- عن أي منزل تبحثين؟!

قلت على الفور:

- منزل رسول...

انتشلت هذا الاسم عفواً من فهرس الأسماء. ولم

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

أدر لم اخترت اسم «رسول» تحديداً من بين كل الأسماء.

- منزل رسول؟! لقد عبرت هذا المنزل قبل زقاقين أو ثلاثة، إنه يقع هناك وسط الأزقة التي مررت بها.

- إذن لقد عبرتُ منزل رسول؟!!

- أجل، لقد عبرته، تعالي لأدلك عليه.

عدت مع الشخص العابر إلى ذلك الزقاق. كنت حائرة، لا أدري ماذا أقول له، لأنني لم أكن أبحث عن منزل أحد. من يكون رسول هذا؟! لا أعرفه. لقد قرأت اسمه عرضاً. كنت أود أن ينصرف العابر إلى حال سبيله، وأن يتركني وشأني.

سألتُه:

- هل تبحث أنت أيضاً عن منزل شخص ما؟!!

- لا، أنا لا أبحث عن منزل أحد. أنا أتجول فقط.

ولم أدر كيف قلت له دون أن أخفي دهشتي:

- إنني أبحث عن منزل رسول. رسول صديقي.

نظر إلي العابر بأسى، ثم قال:

- أما أنا، فإنني أتجول فقط، لا أبحث عن منزل أحد.

في نبراته الصوتية يرقد حزن عميق. ولم أصارحه بأنني أيضاً لا أبحث عن منزل أحد. لم أقل له إن قلبي قد طفح همّاً. لم أقل له إن هذه الهموم قد اندفقت في أعماقي منذ ولادتي. سألتُه:

- وهل تعرف أنت أيضاً رسول؟!

- لا أعرفه.

- إذن، كيف تعرف منزله؟!

- إنني أتجول باستمرار. وأثناء تجوالي، أتوقف أمام أبواب المنازل وأقرأ الأسماء، ثم أرددها همساً على طرف لساني.

مرّة أخرى، بدا لي في نبراته الصوتية حزن راقد عميق، حزن لا ساحل له. بدا لي كأن ذهنه أصبح فهرساً من الأسماء. بل بدا لي بالفعل فهرساً ضخماً لأسماء أشخاص لا يعرفهم. باغتني صوته الحاد:

- هنا منزل رسول.

رنا إليّ بحسرة. اضطربتُ. لم أستطع أن
أصارحه بأنني أيضاً لا أعرف رسول. بل أعرف اسمه
فقط.

ذهب العابر إلى حال سبيله. لكنه توقف فجأة
على مبعدة. شيعته بنظرة أخيرة، دون أن أخفي
دهشتي وأساي.

ضغطتُ بإصبعي على الجرس. رن الجرس.
سمعت رنينه، سمعت وقع الأقدام من وراء الباب.
ارتجف قلبي. وتردد وقع الأقدام غرباً في أذني. خيل
إليّ في تلك اللحظة أنني واقفة أمام الباب منذ
ولادتي، أمام باب شخص أعرف اسمه فقط ولا أعرفه
عياناً. خيلَ إليّ أنني وقفت أمام هذا الباب
بالتحديد، منذ بدء ولادتي. أمام باب رسول. ومنذ
ذلك الوقت ووقع الأقدام يتردد غرباً في أذني.

كانت نظرات العابر لا تفتأ تثقل علي. كان ينظر
إليّ بأسى، بدأ وقع الأقدام يقترب، وفجأة شرعَ
الباب.

رأيت أمامي رجلاً طويلاً القامة نحيف الجسم.
نحيفاً جداً وطويلاً. كان لباسه أوسع من جسمه من
فرط نحافته وطوله. وكان به انحناء أيضاً. بدا لي
البياض في شعر رأسه أكثر من السواد. وكانت عيناه
مستديرتين صافيتين. كانت الشعيرات البيضاء في
ذقنه أيضاً أكثر من السوداء.

نظر إليّ مستفهماً، وقال:

- من تريدان؟! -

كان صوته خشناً جداً، تتخلله رنة ترحيب، كنت
أود أن أسمع صوته ثانية، فتظاهرت بأنني لم أسمع
سؤاله.

وسأل ثانية:

- من تريدان؟! -

- أجبتُ فوراً:

- رسول.

نظر إليّ الرجل مندهشاً، ثم قال متلفظاً:

- تفضلي، إنني هو.

لم أكن أحمل في ذهني من قبل أيّ صورة عن

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

رسول، لكن الصورة التي تخيلتها في لوعي كانت
- مع ذلك - تختلف تماماً عن الصورة الحية التي
أمامي الآن.

كانت رنة الترحيب تخلل صوته. وكان قلبي
يرتجف، وبقيت واقفة.

قلت عجلة:

- هل تبيع منزلك؟!

فوجئ بسؤالي، وقال:

- من قال لك إنني أبيع منزلي؟!

نظرات العابر لا تفتأ تثقل عليّ من بعيد.

قلت:

- أخبرني بذلك أحدهم... سمعت أنك تبيع المنزل.

هز الرجل كتفيه، وأخذ يردد:

- غريب، غريب. حقيقة إنه لأمر غريب.

من وراء الرجل، كانت تبدو حديقة غناءً، منسقة

بشكل جميل، وبها ورود ملونة، وكانت تنبعث منها

رائحة عبقة.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423 هـ ، يونيو 2002

رغبت في أن أتوقف أمام الباب لحظات أطول،
لأشم مزيداً من هذه الرائحة العبققة.
في جانب من الحديقة، لمحت دميمة ملقاة.
سألت الرجل:

- لمن تلك الدميمة ياترى؟!
نظر إليّ ثانية بدهشة. وبصوته الخشن ذي الرنة
المرحبة، قال:
- إنها لابنتي.
- هل لك طفلة؟!
- أجل إن لي طفلة. لكن ما شأنك بهذا؟!
- لا بد أنك تحب طفلتك حباً جماً؟!
كان سؤالي سخيلاً، بلا شك. وكان أكثر سخفاً
في نظر الرجل. أجاب:
- طبعاً.

كانت تستبدّ بي رغبة في أن أرى طفلته.
وكان بادياً على الرجل أنه ينتظر مغادرتي باب
منزلته في أقرب وقت. فاستدركت:

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

- حسناً، أنت لا تود بيع منزلك. أرجو المعذرة.
ابتسم، كانت أسنانه صفراء كدرة. تمتم بشيء.
ثم أغلق الباب.
مازال العابر واقفاً بعيداً. نظراته تضايقني.
عندما ابتعدت خطوات عن المنزل، تعمّدتُ أن
أرفع صوتي قائلة:
- مع السلامة رسول. وإلى لقاء جديد.
نظر إليّ العابر بأسى. وسألني:
- هل يحبك أصدقاؤك؟!
أجبتة على الفور:
- طبعاً، طبعاً. إنهم يحبونني. يحبونني كثيراً.
ثم سألت ثانية:
- ماذا تفعلين في الليل؟!
- أتفقد أحوال أصدقائي.
سكت، ولم ينبس ببنت شفة.
سألته:
- وأنت ماذا تفعل؟!

- أتجول وأتجول. أنا جوال باستمرار.

- مع من تتجول؟!

- أتجول وحيداً.

انفطر له قلبي. تذكّرتُ أنني أيضاً أتجول وحيدة.

حدق العابر في وجهي وفي شعري. مسحتني
نظرته من رأسي حتى قدمي. ثم استرد نظره وكأنه
تذكر شيئاً. كأن في عينيه شيئاً يلتمع. كان في
عينيه بريق غامض عجيب، بريق لا تستشفه سوى
المرأة في عين الرجل.

سألني بلهجة آمرة:

- أنت امرأة وحيدة، فكيف تذهبين ليلاً لزيارة
أصدقائك؟! وكيف تعرفين رسول هذا؟! ومن هم
أصداؤك هؤلاء؟!

بُهِتُ لحظة ولم أحرُ جواباً، تذكرت حينئذ أنني
امرأة، وأنه لا ينبغي لي أن أرافق رجلاً غريباً.
كان العابر يترقب جوابي.
لم أجبه على سؤاله.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

سألته:

- لماذا تخرج في المساء متجولاً من حي لآخر؟!
كان الرجل ينظر بقلق وحيرة إلى أحجار
الرصيف غير المنتظمة. مسترقاً نظرة نحوي بين الفينة
والأخرى. خفض من صوته قائلاً:

- إنني حزين، ولكأن حياتي مندورة للحزن. كأنني
خلقت أصلاً للحزن.
واستأنف بأسى:

- كل شخص في هذه الحياة مندور - لا محالة -
لشيء.

نظر في عيني مرة ثانية، منتظراً جواباً على
سؤاله السابق.

قلت:

- ربما كنتُ حزينة أنا أيضاً.

مسحني الرجل ثانية بنظرته من الرأس إلى
القدمين.

ثم قال:

- ترى أيُّ حزنٍ يمكن أن يكون لدى المرأة؟!
بدا لي الرجل في هذه اللحظة قاسياً فظاً. بدا
لي مخلوقاً شريراً. فانقبضت دونه نفسي ولم أفه
بكلمة.

وصلت إلى شارع كبير، بعد أن عبرت أزقة
خالية.

كان الشارع صاخباً. المارة في جيئة وذهاب
كصفوف النمل. ملصقات الأفلام تعلو دور السينما.
المصابيح الكهربائية مصطفة على الأرصفة والجدران.
المقاهي مكتظة بالزبناء. رائحة الكباب تملأ الفضاء.
كان الناس متكدسين داخل المقاهي، غارقين في
أضواء المصابيح وأدخنة الكباب. بدت لي المدينة
كبيرة جداً وصاخبة جداً. الدراجات النارية تمرق
مسرعة من صوب لآخر. خيل إليّ أنني أرى المدينة
لأول مرة، وأنتبه إلى ضخامتها لأول مرة.

الرجل العابر كان ينظر إلى الملصقات والأضواء
والناس بعينيه المستديرتين الصافيتين، وكأنه يرى
المدينة هو أيضاً لأول مرة.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

مدَّ يده نحوي ممسكاً بذراعي. التمتع في عينيه
ذلك البريق الغامض العجيب. خفَّض من صوته قائلاً:
- أريد أن أسألك... أعني... هل يمكنك الذهاب
معى هذه الليلة؟!

- ماذا قلت؟!

- لا شيء... لا شيء... أردت أن أقول إنك امرأة
تائهة ربما... وأعلم أنك وحيدة أيضاً... فهل
ترغبين في أن تكوني ضيفتي؟!
- لا.

بدا لي وكأنه لم يسمع صوتي. بدا لي شخصاً
قاسياً فظاً لا يسمع أي صوت.
نظر إلي مشدوهاً، وفي عينيه توسمت مسكنه
وعدم ثقة، ثم قال:

- أنت امرأة تخرجين مساءً، وتسيرين من زقاق لآخر،
تقرعين الأبواب وتدعنين أصدقاءك... أنت...
أنت... لست أدري لماذا تخرج المرأة من منزلها في
مثل هذا الوقت من الليل؟!

أحسست بالجملة الأخيرة كسوط ينزل علي. من

منزلها... من منزلها... عادت بي الجملة إلى الماضي البعيد. إلى طفولتي. فتذكرت منزلنا في تلك الأيام. ... كان لون باب منزلنا أخضر. وكان يتوسطه مزلاج محكم. حين يدخل المرء إلى فناء منزلنا، يصادف بهواً طويلاً متوسط العرض، ينتهي بحديقة مربعة الشكل تخضرُ صيفاً وتذبل شتاءً فيصير منظرها مثيراً للحنن. كانت جميع نوافذ الغرف تطل على الفناء. كان باب منزلنا مختلفاً عن باقي الأبواب الأخرى. كانت الأسماء منقوشة على الأبواب. أما باب منزلنا، فلم يكن عليه أي اسم ولا أي نقش. لم ينقش والدي اسمه على الباب قط. أتذكر أن والدي كانت معجبة بالأبواب المجاورة، فطلبت من والدي يوماً، وبلهفة الملحاح، أن ينقش اسمه بحروف سوداء على قطعة خشبية بيضاء، يرصع بها باب منزلنا. كان والدي في تلك اللحظة متكئاً على الجدار. أخرج من جيبه تمثالاً صغيراً لبُودا، وأخذ يمعن فيه النظر. كان جيب والدي متحفاً لمثل هذه الأشياء باستمرار: تمثال، طابع، حجرة كريمة... وفي لحظات فراغه، يخرج هذه الأشياء، ويمعن فيها النظر.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

تفحص والدي التمثال الصغير الذي أخرجه من جيبه. كان بوذا جالساً القرفصاء، يضع إحدى يديه على كتفه وينظر إلي الأمام بأبهة. استدار والدي بوجهه وكأنه لم يسمع كلام والدتي وقال:

- هل تعلمين أن بوذا كان أميراً؟!

لقت والدتي شادورها على رأسها، وقالت:

- لو نقشت اسمك بحروف سوداء على قطعة خشبية بيضاء ووضعتها على الباب، لكان أفضل.

وضع والدي التمثال الصغير فوق كفه مواصلاً تأمله. كان بوذا جالساً القرفصاء ينظر أمامه بأبهة.

استدار والدي بوجهه ثانية نحو والدتي، وقال:

- أمر عجيب حقاً! يعيش المرء زمناً، وبعد مضي قرون، يعبده أناس آخرون، يعبدونه بكل جوارحهم.

قالت والدتي:

- ما أجمل باب منزلنا لو كان لونه أبيض، وكنت الوحيد الذي ينقش عليه اسمه بلون أسود!

قال والدي، وكأنه يناجي نفسه:

- عجيب! وسيظل الناس بعد القرون المقبلة يصنعون
له التماثيل ويضعونه في أمكنة عالية ويخرون لها
سجداً. حقاً، إنه لأمر غريب!

قالت والدتي:

- حسناً، لكن ضع اسمك على باب المنزل.

ضحك والدي وقال:

- لا، لا يمكن. إنه عمل مضحك.

وأخذ يضحك ثانية.

تأملتُ والدي. كان شكله يمنحني نوعاً من
الطمأنينة والسكينة. جبهته العريضة، شعيراته
البيضاء، عيناه، شفتاه الضيقتان، يداه الناعمتان
البيضاوان، كلُّها تمنحني الطمأنينة والسكينة.
ضحكته أيضاً كانت تمنحني هذه الطمأنينة. حُيِّلَ إليَّ
أني ما زلت أسمع صدى ضحكة والدي. وكأن هذه
الضحكة منقوشة في زاوية من ذاكرتي. كنت أسمع
صدى الضحكة مقروناً بتلك الجملة (لا، لا يمكن. إنه
عمل مضحك).

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

مرت كل هذه الأشياء، كلمح البصر، في
ذاكرتي.

عاد الرجل العابر يسأل:

- أخبريني لماذا خرجت من منزلك في مثل هذا
الوقت؟!

كنت أودُّ أن أجيبه: لا منزل لي.

المنزل... المنزل مرة أخرى.

وكان الكلمة تعود بي قسراً إلي الماضي.

تذكّرتُ طفولتي ثانية.

في تلك الأيام كان للمنزل معنى خاص. عندما
أجوع، كنت أهرع نحو المنزل. وعندما أفزع، أركض
نحو المنزل. وإذا ما تحرش بي الأطفال وأرادوا ضربني
وإيذائي، أطلق ساقبي القصيرتين نحو المنزل. أركض
ويركضون ورائي. وبكل قواي، أجهد كي أصل إلى
باب منزلنا الأخضر. كان يخيل إلي أن الباب الأخضر
يبتسم لي بمحبة، فاتحاً ذراعيه.

- هلمي... هلمي... اركضي، أسرعني... -

وبمجرد وصولي، أشرع الباب بقوة، ثم أوصده بالمزلاج المحكم. في تلك اللحظة يحضن المنزل جسيمي الصغير، في حرزٍ حريز، وتغمرنى الطمأنينة أن لا أحد يستطيع اختراق هذا الحصن. كان الأطفال يضربون الباب بأيديهم وأرجلهم حنقاً. وكنت خلف الباب آمنة مطمئنة. لم يكن بي أدنى خوف منهم. بل كنت أضحك عليهم. كان ضحكي يضاعف من حنقهم، فيضاعفون ضربهم على الباب. وفي الأخير يصيبهم العياء، فيعودون أدراجهم. وتغمرنى حينئذ طمأنينة عجيبة ولذيذة. وأحسُّ كأنني أعتلي مكاناً عالياً جداً. كنت أنظر إلى جدران الفناء، فأراها سامقة بيضاء، تضيء علي النفس طمأنينة عامرة بسموقها وبياضها.

في بعض الأحيان، كنت أقف في وسط فنائنا خجولة من باب منزلنا الأخضر، ومزلاجه المحكم الجميل. كنت أعلم أن الأطفال واثقون من أنني فررت خوفاً وفزعاً، فكنت أخفي رأسي حتى يغطي شعري كل وجهي.

كان يبدو لي أن الجدران العالية البيضاء،
والباب الأخضر وأصصي الصغيرة، تضحك على
صغري وسذاجتي. تضحك بحنو ومودة، ولسان حالها
يقول: لقد خفت من أطفال صغار، أطفال صغار
مثلك.

كنت أطأطي رأسي، حتى لا تقع عيناى على
الجدران العالية البيضاء والباب الأخضر. أصعد
الدرج. أفتح باب الدهليز بهدوء، فيجئى هواؤه
معتدلاً منعشاً. وحينئذ فقط، أرفع رأسي. كنت أعلم
أن أقاربي لا يعلمون شيئاً عن فراري. فأذهب تواءً إلى
والدتي، ويداي في جيبى، وأقول لها مختالة:

- لقد ضربت بنات الجيران، كما ضربت الأولاد،
أيضاً. لقد أشبعتهم ضرباً وجرحاً، ثم ولوا الأدبار
من أمامي، وطاردتهم حتى أبواب منازلهم.
فأغلقوا الأبواب خوفاً وهلعاً. لقد صحت أتهدهم:
«إن كنتم لا تخافون، فاخرجوا». لكنهم لم يقووا
على الخروج. فأدركت أنهم ذهبوا إلى أمهاتهم
ليكذبوا عليهن.

لم تكن والدتي تعقب بشيء على كلامي.
ولست أدري هل كانت تصدق كذبي أو لا. أما
إخوتي، فقد كنت أتحايل عليهم حتى يصدقوا كذبي.
كنت أنظر إلى إخوتي الصغار بازدهاء وكبرياء،
وأكرر عليهم القصة مرات ومرات. كانوا يحدقون
صامتين، دون أن ينبسوا بكلمة.

كان الرجل لايفتأ سائراً بجنبي. كنت أود أن
يغير وجهته ويذهب لحال سبيه ليتركني وشأني. وكان
نوع من الحنق يساورني تجاهه. لقد ذكرني بالمنزل
واستثار شجوني، وجعلني أحس بأني مازلت طفلة.
طفلة صغيرة خائفة تفتعل الأكاذيب الكبيرة.

سألت الرجل:

- هل رأيت في حياتك طفلة عمرها خمس وعشرون
سنة؟!

نظر إلى الرجل متعجباً، وقال:

- مجنونة.

أغلقت عيني فجأة، وفتحت فمي صائحة:

- اغرب عن وجهي! هل تدري أنك تضيع وقتي

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

ووقتك بلا طائل؟ إنني لن أذهب معك ولن أذهب
مع سواك. انتشر في الأرصفة، وتسكع تحت
المصابيح. ابحث عن امرأة أخرى، هنا وهناك،
واذهب بها لتجعل ليلك صباحاً. هل تدري أنني
أشمئز منك... أنت... يا أنت! لقد ذكرتني
بالمنزل... ذكرتني بالمنزل... هل تفهم هذا؟
كان الرجل يحدق فيّ مشدوهاً. وكان المارة
يلتفتون إلينا، ثم يواصلون سيرهم.
كان الرجل لا يزال واقفاً.
سألته:
- أخبرني، أنت تنتظر من؟
قال:
- إلى أين أنت ذاهبة؟
في نبراته الصوتية يرقد حزن عميق. كانت
نبراته تنزل علي هذه المرة كالسياط. ناجيت نفسي
متسائلة: حقاً إلى أين أنا ذاهبة؟
بدأ هذا السؤال يكبر بالتدرج في رأسي.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

احتواني السؤال حتى الامتلاء. وخيّل إلي أنني
تشرنقت سؤالاً. تشرنقت علامة استفهام.

لكنني أجبته:

- إنني ذاهبة إلى بيتي، أنتظر رسول، كما أنتظر
أصدقاء آخرين سيأتون.

لا أدري هل صدق كذبي أم لا. لكنه تركني
وابتعد. خالطني شعور بأنه ذهب ليستأنف سيره.
ذهب ليذرع الأزقة ويقراً الأسماء على أبواب المنازل،
ويصنع في دماغه فهرساً من الأسماء. بل إن دماغه
أصبح فهرساً من الأسماء.

واستأنفت أنا أيضاً مسيري. انتبهت إلى أنني
وصلت إلى مفترق بين أربع طرق. من بعيد كان يبدو
لي بجلاء نيون السينما وأضواء المصابيح الزرق
والخضر. كانت رائحة الكباب لا تفتأ تصل إلى أنفي.
احترت أي طريق من الطرق الأربع أسلك. بعد لحظة
عرجت اعتباراً على إحدى الطرق، كان الجو حالكاً،
توجست خيفةً من الظلمة كعادتي. كنت أسير بمحاذاة
الأبواب. ألقى نظرة هنا وهناك.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

اقتربت من باب منزل. تفرست بعيني في الباب. قرأت اسماً. قرأت أسماء أخرى. تراكم في ذهني من جديد، فهرسٌ طويل من الأسماء، كنت أسلي فؤادي بهذا الفهرس. لا أدري لم أسلي فؤادي دائماً بأسماء أشخاص لا أعرفهم!

خفت من الظلمة، فجأة أحسست أني طفلة، طفلة قصيرة وبدينة. وخيل إلي أن الأطفال يركضون خلفي، يريدون الإمساك بي... لا أدري ماذا سيفعلون بي، ربما سيقطعونني إرباً. قلت في نفسي: «مؤلم جداً أن يقطع الشخص إرباً. يد، قدم، أشلاء، رأس بعينين نصف مفتوحتين...».

بدا لي المشهد منقراً مخيفاً. تضاعف خوفي، وفجأة لُذت بالفرار. تصورت الأطفال يطاردونني غاضبين، يريدون الإمساك بي. كنت أركض بساقي القصيرتين البدينتين، وألهث. لكن لم يكن ثمة باب يدعوني إليه، إلى حضنه، لم يكن ثمة باب، بدت لي الأبواب ضيقة رافعة أيديها في وجهي، وقائلة بصوت قاس: «الدخول ممنوع». تذكرت بحسرة وأسى، الباب الأخضر.

أدركت أن الأسماء التي قرأتها على أبواب
المنازل لا تجدي نفعاً. بدت لي الأبواب قاسية جداً،
كأولئك الذين يطاردونني حائقين.

كنت أركض إلى الأمام، ولا أعلم إلى أين
ستفضي بي الطريق، ساورني شعور بأن الطريق
ستفضي بي إلى جدار. وكنت أتوقع في كل لحظة أن
أصطدم وأرتطم بذلك الجدار.. سيمسك بي لا محالة
أولئك الراكضون خلفي وسيمزقونني إرباً إرباً... ومع
ذلك، سألت نفسي: «هذا الجدار تابع لأي منزل؟»
تردد صدى هذا السؤال على شفتي: «لا أدري
لمن الجدار. لا أدري لمن هو».

امتزج صدى سؤالي بالحزن والأسى.

كان الجدار يبدو لناظري من بعيد. وكنت أركض
مسرعة في اتجاهه. وكان الآخرون يركضون خلفي
حائقين. كانت أيدي الأبواب وأصواتها تتعالى في
وجهي، وفي سمعي، لقد اقتربت جداً من الجدار.
امتلأت عيناى بالجدار. فجأة فَعَرَ الجدار فمه، فتح
بابه.

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ، يونيو 2002

غمرني سرور باهت، ها أنا ذي قد نجوت!
سألتُ نفسي في تلك اللحظة: «هذا الباب،
وهذا الجدار، في أي منزل يقع؟!». .
لم أنتظر الجواب. هَرَعْتُ بكل قواي إلى
الداخل، وأغلقت ورائي الباب بقوة.
كنت ألَهث. نظرت إلى الجدران، لم تكن
بيضاء. كانت رمادية اللون، لا تمنح الإنسان أي
طمأنينة أو سكينه، كانت تمنح الخوف والفجيعة.
كانت تقول لي شامته: «ها أنت إذن أيتها الجبانة!
لقد خفت أخيراً ووقعت!...». .
كانت أصوات الجدران تصك سمعي غاضبة
متشفية.

فجأة، ألفت الرجل العابر واقفاً قبالي.
ابتسم بلطف وقال دَهشاً:
- أنت! أنت نفسك الآتية إلى هنا، إلى هذا المنزل؟!
هل تعلمين أنه لي؟!
كنت ألَهث، ولا أكاد أمسك أنفاسي، أرتج

نوافذ (20)، ربيع الآخر 1423هـ ، يونيو 2002

عليّ، ولم أحرّ جواباً. بدت لي الجدران، كل الجدران،
متواطئة مع الرجل ثم... أقفل الباب.
خَجَلْتُ، رأيت الأرض رمادية اللون، تسمرتُ
عيناى على قدميَّ. كانتا تبدوان لي هذه المرة كبيرتين
كبيرتين. أصُصِي أيضاً، كانت تبدو لي كبيرة كبيرة!

(1976م)

* * *